١١٢

روايات أحلام

هل قلبت تعالى؟

فراشة المحبة

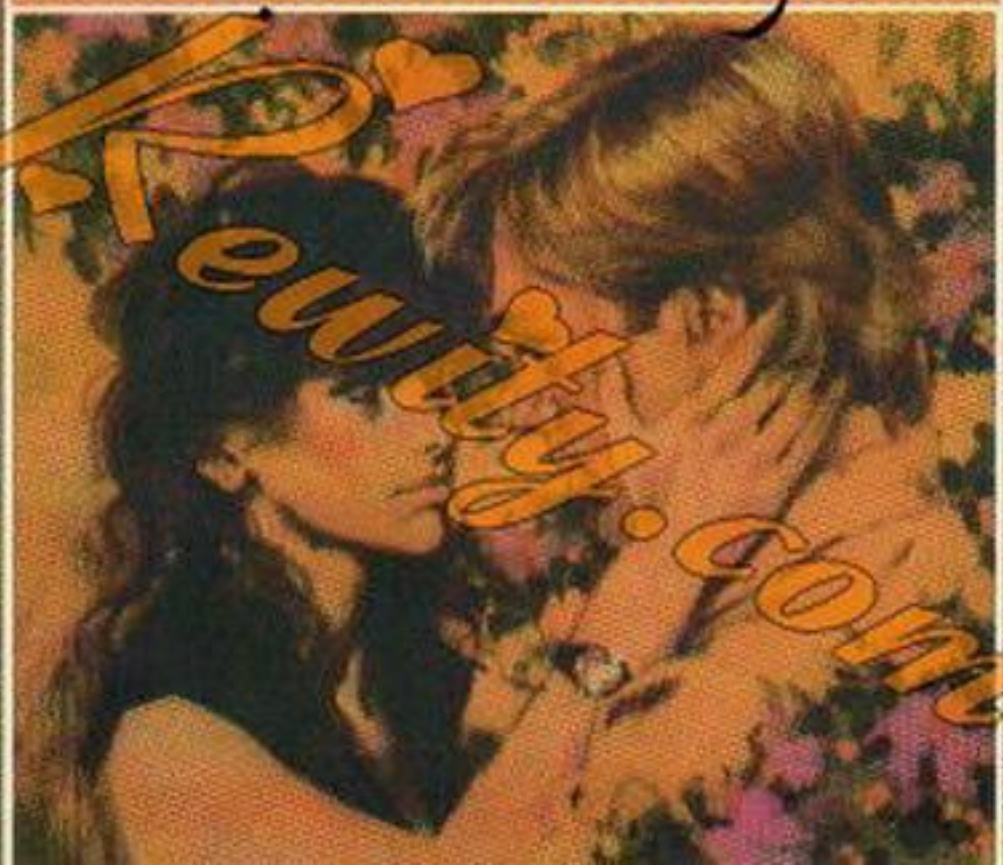

روايات أحلام

هل قلتَ تعالي؟

« أيمكن أن نتآمر أنا وأنت على القدر ؟
أيمكن أن نفككه قطعاً صغيرة ثم نعيد تشكيله كما يرغب قلبانا ؟ » .

عندما رأت بابيتي فارس أحلامها الذهبي الشعر أمامها أدارت ظهرها وقالت : «لا ... لا أريدك فعملي له الأولوية»...

ولم يكن كورد بالرجل الذي يفكر في التنازل ...

وهكذا وقفا متقابلين : هو مكتف بأملاكه الشاسعة في عالمه الأجمل من الخيال، وهي غارقة في مشاغل مرضاها اليومية، وقلبها وراء قضبان الحرمان.

ما بينهما أقرب من شعرة وأبعد من سراب... تكفي خطوة واحدة من أحدهما كي ينتصر الحب، لكن كليهما لا يرغب في التضحية... ولن ينتصر الحب دون تضحية!

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل. الإمارات ٦ د. مصر ٤ ج. ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س. قطر ٦٠٠ ر. المغرب ٢٥ د. اليمن
الأردن ١ د. البحرين ٦٠٠ ف. تونس ١.٥ د. السودان
الكويت ٥٠٠ ف. السعودية ٧٠ ر. عمان ٦٠٠ ب. العراق

١ ـ حريق!

ذروة الصيف!

للكلمتين سحر خاص بهما.. رفعت بابيتي نيكولاس شعرها البني الأدكن عن وجهها الصغير واضجعت على ظهرها.. تمدد جسدها الصغير بترف على البساط، ورفرفت أهدابها الطويلة بنعاس وهي تنظر إلى المظلة الفضية والخضراء تحت الشجرة الاستوائية.... كشف تثاؤب عريض عن أسنان صغيرة قبل أن تتوارى خلف ابتسامة رضى ونعاس، ثم أطبقت جفنيها على عينيها الخضراوين اللتين تشبهان بلونهما لون أوراق الشجر في موقها.

قبل أن يستولي عليها النوم فكرت أن هناك مكسباً ما يمكن اكتسابه من التهاب الرئة والوهن الذي يصيبها.. ولهذا السبب قصدت موتواروها لقضاء ثلاثة أسابيع. وتواروها اسم غريب، فما الذي دعا أسرة ويكسلر إلى تسمية منزلهما «بجزيرة الحب»؟ قررت أن تكتشف السبب، لكنها تثاءبت مرة أخرى.. فليذهب إلى الجحيم.. لا وقت لديها له.. إنها قانعة راضية بالاستلقاء في الظل حيث تصغي إلى تكسر الموج على الشاطىء في الأسفل وإلى هدير محرك قارب صغير في الخليج.. وإلى صيحات لاعبي التنس المخنوقة اللذين يرهقان نفسيهما على ملاعب الفندق.

وارتسمت ابتسامة جميلة على ثغر بابيتي، وهي تترك النوم

يستولي عليها فوق الظهيرة في الصيف هو للقيلولة.

استيقظت مرعوبة على صوت معركة.. اجتهد دماغها ليفهم الصيحات الوحشية والزمجرة التي كانت تخترق الجو ببشاعة، فالشغب قريب جداً منها بحيث لا يتركها مستريحة، بدا لها أن قطيعاً من الذئاب يتشاجر على قتل الآدمي الواقع تحت رحمته.

اتضح لها أنها لا تزال سالمة، ففتحت عينيها.. وما رأته جعلها تجلس بسرعة صائحة:

ـ لا!.. لا.. لا تفعلا هذا.. لا!

سمع الكلبان، الأسود الصغير «سبانيال» وكلب الرعاة، المولع بالمشاكسة، الأمر الحازم، فتوقفا عن العراك. التفت الرأسان معاً ليواجهاها بتعابير متماثلة من الغضب والتوتر.

صاحت تأكيداً على عزمها وسلطتها: اجلسا!

جلسا ويا للدهشة تجاهل كلب الرعاة الغاضب ما تبقى من غدائها المرمي على الأرض.. فيما اتجهت عينا السبانيال إلى أقرب قطعة طعام بطريقة دفعت قلب بابيتي إلى التلوي شفقة.

ـ أيها المسكين الجائع!

لاحظت أن جلده ملتصق بضلوعه البارزة، وأن شعره ملبد وقذر كما لاحظت العينين السوداوين الجائعتين. بدا وكأنه لا يخافها أو يخاف كلب الرعاة الأكبر منه بكثير.

مدت بابيتي يدها، بغض النظر عن أنها كانت مستلقية وهي مرتدية ثوب سباحة ذي قطعتين، وأخذت رغيفاً كبيراً وقدمته للكلب الصغير.. أخذ كلب الرعاة يئن احتجاجاً وبدأ ذنبه يضرب الأرض فيما عيناه راحتا تراقبان الكلب الصغير وهو يزدرد الرغيف بنهم يكشف عن شدة جوعه.

قالت بابيتي مفكرة:

ـ أتساءل إن كان عليَّ أن أعطيك المزيد.. لو كنت إنساناً لكان هذا الرغيف أكثر من كافٍ لك ولكن الكلب أكثر شراهة.. مع ذلك فالمزيد قد يضرك.

سمعت أنيناً مثيراً للإشفاق وكأنه يقول لها العكس.. لكن ارتفع فوق الصوت وقع حوافر جواد.. فالتفتت بابيتي فرأت وعلى بضع ياردات منها، حيث الحدود بين أرض الفندق ومزرعة الأبقار والأغنام، التي تحتل أكبر جزء من الجزيرة، سياج أسلاك.. ومن الجهة الأخرى، رأت جواداً يسير خبباً نحوها.. وحكماً على تعبير وجه الراكب الأسمر، تبين له أنه يستمتع بمنظر بابيتي الجميل.

ـ آه! اللعنة!

شعرت بابيتي بالحرج لأنه كان يتأملها ولكنها احتقرت الإحساس بعدم الثقة الذي شعرت به.. ولكن هذا المزارع أيعرف مدى الحرج الذي تحس به بسبب نظراته؟

استعدت لسماع تعليقه.. لكن كلماته الأولى كانت موجهة إلى كلبه.

ـ إلى هنا.. بلاك!

وقف كلب الرعاة وسار بهدوء عائداً إلى حيث السياج، وهناك جلس على مسافة من حوافر الجواد.

لم تدرك أنها تبتسم، رفعت بابيتي وجهها، إلى فوق.. فوق.. الجواد الضخم، كستنائي اللون، وجهه لطيف.. والرجل المعتلي صهوته ضخم أيضاً. حسناً.. ليس ضخماً بالضبط.. ليس متثاقلاً، أو أخرق أو عملاقاً بل كبيراً.. راقبت المتطفل بنظرة ذهول وقلق وهو يترجل ويرمي عنان جواده على أقرب سياج، قبل أن يحني رأسه لها رافعاً قبعته، التي بان تحتها شعر بلون القمح الناضج.

قال بصوت لطيف: «هذا الكلب.. متشرد».

ـ أدرك هذا . . وهو يتضور جوعاً.

كانت العينان الكهرمانيتان اللتان تنظران إليها بسرور تومضان ببريق التسلية.

ـ لست مسؤولاً عن هذا.

ارتفع تورد سخيف آخر إلى بشرتها . . يا إلهي . . ما أشد ما يجعلها تبدو بلهاء! قالت بلهجة توحي بصبر مبالغ فيه:

ـ لم أفترض أنك المسؤول . . ماذا تظن أن عليَّ أن أفعل به؟

نظر بلا اكتراث إلى الكلب، وأعاد النظر إلى عينيها مجدداً:

ـ إنه لا يضع طوقاً . . فلذا لا أظن أن مالكه السابق يريد استعادته. وعلى ما يبدو أنه رقيق القلب فلم يستطع قتله . . لذا رماه من عن القارب . . يجب أن يقتل.

اكتشفت بابيتي أنها لن ترغب في معاداة هذا الرجل . . استطاع صوته العميق الحساس إظهار الاحتقار . . حينما تكلم عن مالك الكلب اشتدت قسماته القوية بطريقة أرسلت قشعريرة إلى أوصالها.

ثم تراخى التعبير الجاف وأصبح ابتسامة فاتنة اضطرت معها إلى ابتلاع ريقها قبل أن تحتج.

ـ لكن، لا يمكنك قتله! إنه غير مذنب لأنه هنا . . يا للمسكين! انظر إليه . . إنه مذعور كلياً.

مدت أصابعها إلى رأسه تداعب خصلات الكلب الجعداء . . متجاهلة بذلك أوامر الغريب . . ولكن سرعان ما انتزعت قبضة قاسية يدها بقسوة آلمتها. رفعت عينيها بغضب لتخبىء الصدمة التي سببتها قبضته. وقبل أن تقول شيئاً، قال بصوت غريب النبرات:

ـ لا تلمسي أبداً كلباً متشرداً . . فبعضها لن يتوانى عن عض اليد التي تلاعبه.

نظرت بابيتي إلى الكلب وهي مصدومة لتقول له:

ـ ما كنت لتفعل ذلك . . أليس كذلك؟

استجاب الكلب إلى المداعبة في صوتها، وبدا ذلك بارتعاشة ذيله الذي راح يضرب الأرض وراءه بحماس.

قال الغريب ساخراً:

ـ إنه بكل تأكيد مغطى بالبراغيث وبالحشرات الآكلة.

ـ أوه . . !

ـ خاصة في أذنيه.

ركعت بابيتي وراحت تفحص أذنيه بطريقة تدل على أنها تدرك ما تفعل. تجاهلت الرجل حتى تأكدت أن لا حشرات مؤذية وراء أذني الكلب.

انحنى الرجل يمرر يده البنية اللون على الحيوان المثير للشفقة . .

ـ لقد قمت بهذا بكفاءة . . أكان عندك كلب يوماً ما؟

ـ لا . . لكنني طبيبة.

ـ طبيبة؟

تنهدت قبل أن ترفع عينيها لملاقاة عينيه المذهولتين . . لم تكن عيناه كهرمانيتين بل شبيهتين بلون عيني الأسد إنما يزيدهما بروزاً حاجبان أسودان وأهداب طويلة أيضاً تلتف إلى الأعلى والأسفل كأهداب عارضة الأزياء . . عرفت بابيتي أنها تحدق إليه، ولكنها لم تستطع التوقف. ففي الوجه الذي تنيره هاتان العينان الرائعتان كل الجمال . . ولكنه جمال القوة التي لا تلين. بدت شخصيته مسطورة على وجهه . . ما من أحد يراه يشك لحظة بقوة وسلطة هذه الشخصية.

قالت بتعالٍ:

ـ أجل . . طبيبة واسمي بابيتي نيكولاس . . وأنا على عكس

مظهري لست في المدرسة.

ـ منذ متى؟

ـ أنا في السادسة والعشرين.

مد يده بوقار:

ـ كيف حالك دكتورة نيكولاس.

ـ ما زلت طبيبة مبتدئة.

تصافحا من فوق رأس الكلب المذهول.

ـ تبدين أصغر من أن تكوني تلميذة طب.. أنا كورد بلاكيارد.. أعيش هنا.. أنا في الرابعة والثلاثين ولكنني غير متزوج.

سحبت بابيتي يدها بانزعاج قليلاً وتمنت لو أن طوله وحجمه لا يجعلانها تشعر أنها غير متساوية معه، فعليها أن ترجع رأسها إلى الوراء لتنظر إلى وجهه!

ـ أنا لا أطلق على نفسي لقب الطبيبة عادة، لأنني صغيرة الجسم ويميل الناس إلى معاملتي وكأنني طفلة.. لذا أحتاج إلى كل الوقار الذي أستطيع إحاطته بي.

ـ أعرف هذا الشعور.

ـ لكنك بالتأكيد..

ـ إذا كان طول المرء يزيد عن مئة وثمانية وثمانين سنتمتراً، وبنيته ضخمة مثل شاحنة.. فمعظم الناس يعتقدون أنه يشبه الشاحنة.. لم تذكري إن كنت متزوجة.

توردت مجدداً، وضحكت: لا.. لم أجد الوقت للحصول على زوج.. هل من خطب في هذا الكلب؟

ـ لا.. إنه صحيح الجسم بشكل مدهش. لقد اعتنى به أصحابه جيداً قبل أن يتبلل.. سرعان ما يعود إلى حالته الأصلية متى نال

طعاماً جيداً.. ماذا ستفعلين به؟

نظرت إلى الكلب وهو يسند رأسه إلى ركبتها ناظراً إليها بحزن:

ـ أنا..؟ لا أستطيع.. لا أستطيع العناية به.

ـ لقد وقع في حبك.

ـ لكنني أقيم في الفندق.. ولا يمكنني اصطحاب كلب معي إلى هناك.

لمعت أسنانه البيضاء أمام بشرته الدكناء قبل أن يضع قبعته على رأسه ثانية ثم قال بلا اكتراث:

ـ قولي لبوبي كامينغ أن يؤمن له مكاناً.. فهو يصبح أبله أمام وجه جميل وأمام الحيوانات الشريرة كذلك.

ـ أجل لكن.. الكلاب غير مسموح بها في الجزيرة.. إنها تلاحق الغنم وتقتل الحملان، وتخيف الأبقار.

ـ ما دام قد تمكن من تجنب كل هذا حتى الآن فأستطيع القول إنه ذكي بحيث يعرف متى يبتعد عن أي شخص قد يطلق النار عليه.. ثم طوقيه بطوق ما!

ـ ليس لدي طوق.. ولكنني لن أستطيع أخذه معي حين أعود إلى بلادي.. أتعرف كم ساعة أعمل؟ ليست العبودية الكلمة المناسبة.. إن الكلاب حيوانات اجتماعية، تحتاج إلى صحبة وأنا أعيش في شقة.. وليس من المناسب احتجازه فيها بمفرده وقتاً طويلاً دون رفقة لوقت طويل.

ـ إذن دعيه في الخارج.

ضربت قدمها بالأرض للمرة الأولى منذ طفولتها إذ أثارت جرأته الباردة غضبها وكادت تجعلها تفقد السيطرة على أعصابها.

ـ آه! أنت.. أنت..

لم يقل شيئاً، بل راقبها وهو يرفع حاجبيه.. ولكن تصرفه هذا كان كافياً ليدفع غريزتها الأنثوية للعمل. ارتدت لا إرادياً إلى الخلف فقد أصبح حجمه فجأة مخيفاً.. لا شك أن طوله يبلغ حوالي مئة وتسعين سنتمتراً، غير أن جسمه كان متناسقاً فهو عريض المنكبين عرضاً يكاد معه يحجب العالم عن نظرها. ليس بحاجة إلى الوسامة فما يملكه من فتنة رجولية كافٍ ليغري أية امرأة.

قال وهو يراقبها بعينين ضيقتين وكأنه يقرأ أفكارها:

ـ أنا أضخم منك بكثير.. ولكنني لا أصبح خطراً إلا عند اكتمال القمر.

ابتسمت محاولة بذلك العودة إلى جو الصحبة معه.

ـ أظنك غير مؤذٍ كنمر عادي.

رد ابتسامتها: «من المعروف أن الرجال الضخام الجثة بطيئو الحركة».

ـ حقاً؟ أظنك تشذ عن القاعدة؟ أنا آسفة لأنني خفت منك كانت حماقة مني.. لم أتوقع أن تبدو كما كان يبدو أبي عندما أثور متمردة.

من حسن حظها أن الكلب لفت انتباهها في هذا الوقت الذي كانت فيه تهذر. كان الكلب منشغلاً بالتهام ما بقي من طعامها ويحاول البحث عن المزيد.

صاحت به آمرة خشية أن يقضم البلاستيك: لا!

سرعان ما ارتدَّ إلى الخلف.. فقالت نادمة:

ـ آه! يا للمسكين.. لقد أجفل.. لا بأس..

جثت على ركبتيها تواسيه وتهدهده بطريقة طالما نجحت مع الأطفال.. أعجب الكلب بهذا، فامتد لسانه ليلامس خدها أما عيناه فأبدتا استحساناً واضحاً.

ـ آه! ماذا أفعل بك؟

قال كورد بلاكيارد ساخراً:

ـ ما دمت غير قادرة على وضعه في عهدة أحدهم ليرعاه أو في عهدتك فعليك أن تجدي له مأوى جيداً.

ـ ألا ترغب في سبانيال صغير جميل.. إنه محبب جداً و...

تغضنت ملامحه وهو يجذب يدها لتقف:

ـ لا.. لا أريد كلباً.. لديّ ما يكفيني منها، وما أعرفه أن السبانيال غير مشهور بقدرته على العمل.. مع أنني لا أشك في أنه قد يكون راعياً جيداً.

كانت يده قاسية جافة ودافئة، لم يكن على عجلة من أمره. ارتعش خيط رفيع من التجاوب في داخلها. جذبت نفسها بارتباك وابتعدت عنه تفكر في ذكريات طفولية قضتها في مزرعة صغيرة:

ـ لكنك لا تستطيع تدليل كلابك العاملة. أليس كذلك؟ ألن ترغب في كلب مدلل؟

قال بصوت وقور وبعينين ضاحكتين:

ـ أخشى ألا أستطيع، فأنا مثلك أعمل ساعات طوال، على أي حال إن رغبت اعتنيت به حتى عودتك إلى بلادك.

نقلت بصرها من الكلب المنتظر إليه ثانية:

ـ ثلاثة أسابيع؟ هذا لطف كبير منك.. شكراً لك.

كانت ابتسامتها منهورة دافئة، أنارت قسمات وجهها الرقيقة بشكل جميل.. كانت كاملة التكوين وكأنها تمثال منحوت. لم يكن يشوب بشرتها الذهبية الحريرية شائبة... لم تتلقَ ابتسامة من كورد بلاكيارد رداً على ابتسامته بل كانت عيناه نصف مغمضتين وهما تراقبان وجهها.. بدت بشرته لبرهة بلون أحمر قانم، واشتد بروز معالم وجهه.

ارتدت بابيتي عنه، تبتلع ريقها بصعوبة.. عرفت ماذا تعني تلك النظرة النهمة ولكنها غير مستعدة لها.

بردة فعل سريعة وغير إرادية، التقطت «التي شيرت» الكبير المقاس الذي تستخدمه كغطاء، ودسته من فوق رأسها. ثم سألت بصوت أكثر ارتفاعاً من عادتها:

- وكيف ستتمكن من أخذه معك إلى بيتك؟

- سيأتي مع بلاك.

راقبته بابيتي وهو يمتطي جواده من تحت رموشها. لقد أصبحت بأمان الآن، لذا باتت تستطيع إبداء إعجابها برشاقته التي استخدمها لكبح الانزعاج في نفس الكستنائي المتمرد.. ولكنه رغم خبرته لم يقنع السبانيال في أن يترك بابيتي.. قال أخيراً بسخط:

- ابقي هنا حتى أعود.

وانطلق الجواد عدواً على سفح التل وبلاكي وراءه.

سخطت بابيتي من الأوامر العقوية التي أصدرها، وجلست على البساط، تنظر إلى السبانيال العنيد بقلق.. تقول له:

- أنت عديم الضمير.. أعرف أن حبك لي عائد إلى الطعام الذي قدمته إليك.. لكنه لن يكفيك من الجوع، خذ.. من الأفضل أن تشرب ما تبقى من الماء.

استمتع بالمياه المعدنية التي جلبتها في إبريق عازل. شربها بصوت مسموع، قبل أن يريح رأسه عند قدميها وينام بكل أدب.

جلست بابيتي وبداها حول ركبتيها.. تنظر إلى الخليج العريض أمامها.. لكنها في الواقع، لم تكن ترى أمام عينيها سوى قسمات وجه كورد بلاكيارد الخشنة.. قررت حالمة أنه أكثر الرجال إثارة.. يا لتانك العينان المذهلتان! ويا لذلك الفم الذي لا يكشف شيئاً.. أيمكن لهذه الخطوط المتسلطة أن تلين يوماً فيصبح ملؤها

الحنان؟ أمر صعب تصوره.. لكنها مستعدة للمراهنة بكل ما تكسب على أنه أكثر تعقيداً مما يكشف عنه وجهه الوقور.

ولكي تخمد المشاعر التي كانت تسري في عروقها.. شغلت نفسها بالتفتيش عن أوصاف تنعته بها.. مستبد، لا شك أن هذه الصفة على رأس القائمة.. أجل ومتعجرف ومثير، أجل مثير جداً. كما أنها واثقة أن لديه طبعاً حاداً. صفة سوء الطبع لا تعطيه حقه.. فعلى وجهه مسطورة قدرته على السيطرة على نفسه.. وجدت نفسها تتساءل كيف ستكون ردة فعله لو أطلق لنفسه العنان.

كان تحليل شخصية الناس عادة قديمة عندها، تعلمت القيام بها في أوقات الضغط العصبي الشديد.. والواقع أن تحليلها له أبعد عنها تلك المشاعر التي أزعجتها. فكان أن تركت تفكيرها يسير على هداه، وابتسامة صغيرة تعلو ثغرها.

نشر أزيز زيزان الحصاد نوعاً من الوهن، قاومته فترة.. لكنها أخيراً استسلمت وتمددت على البساط.. كان الكلب مستلقياً قربها.. وعيناه ثابتتان على وجهها.. جعل صوت محرك بعيد أذني الكلب المتشرد ترتفعان، أما بابيتي فلم تحرك ساكناً. حتى بعدما اقترب الرجل منها.. مرّ التحذير الخفيف من السبانيال بتجاهل، ووقف كورد فترة طويلة يتأمل الجسد النحيل المستلقي ببراءة. كانت تعابير وجهه غير مقروءة.

أيقظها تكرار اسمها.. فتثاءبت وتمطت ثم جعلت نفسها في وضع دفاعي بشكل غريزي.

نظرت إليه باستغراب، كان واقفاً ويداه على جنبيه يراقبها باهتمام بارد، حتى كاد يبدد ثقتها بنفسها إذ شعرت بأنها مذنبة. وضعت ذراعها على وجهها ثم ما لبثت أن قعدت بطريقة متكبرة. ونظرت إلى ذلك الوجه الخشن، والمقاومة تحول تعابير وجهها إلى

نظرة باردة.

أخيراً مد كورد لها يده.. ولكن قبولها يعني بالنسبة لها الهزيمة.. مع ذلك رأت يدها الصغيرة تمتد لتغلفها يده الضخمة قبل أن ترفعها على قدميها بحركة رقيقة سهلة.

ابتسم لها ابتسامة تعاطف وتفهم بسبب الارتباك الذي لم تستطع إخفاءه. التفت أنامله الطويلة بتملك حول عظام يدها الرقيقة.. فارتعشت وسجنت عيناه عينيها.

قالت مخدرة الحس: «أنا لا...».

وصمتت شاهقة لأنه رفع يدها إلى فمه يلثم معصمها من الداخل، قال وهو يراقب وجهها المتورد.

ـ ولا أنا.. لكنني أتطلع شوقاً إلى التعرف.

أعاد إليها يدها.. فأخذت تفتش عن بعض التماسك.

ـ لا أدري ما تعني.

أشاحت بوجهها لتخفي حرجها.

لم يُجب ولكنها رأت فمه يسترخي بابتسامة وهو ينحني ليلتقط البساط.. ذكرتها حركته الرشيقة بحركة وحش مفترس رشيق.. صحيح أنه ليس رشيقاً كل الرشاقة، لأنه أضخم من أن يوصف هكذا.. ولكنه رجل شديد الثقة بنفسه.

نهرت نفسها.. والتقطت الحقيبة التي فيها طعامها، وتقدمت باستسلام نحو اللاندروڤر المتوقف وراء السياج.

قالت بغباء: كنت متعبة لذا لم أسمعك قادماً.

ـ أكنت مريضة؟

نظرت إليه باستغراب: «أجل.. التهاب الرئة.. ثم عدت إلى العمل بكل غباء، وبسرعة. ولهذا أستلقي الآن تحت أشعة الشمس وألتقط الكلاب الشاردة.. وأتظاهر بأنني سنجاب الشاطىء».

ـ أنت نحيلة جداً أما سناجب الشواطىء فممتلئة الجسم عادة، وأسنانها ناصعة البياض.. وما من سنجاب شاطىء يربت كلباً بدون التأكد من براغيثه، أو يتركه ينام عند قدميه مع تلك البراغيث.

إنه يبتسم بخبث متى أراد. ضحكت بابيتي حامدة ربها لأنهما وصلا إلى السياج فهناك لم تعد مضطرة إلى الرد عليه. فتح كورد لها الأسلاك لتمر من خلالها.. وما إن مررت الكلب واستقامت حتى كان كورد واقفاً قربها مبتسماً.. وكأنهما يتشاركان سراً ذا أهمية ومغزى.

صعدت إلى اللاندروڤر ثم قفز السبانيال حيث جلس عند قدميها مرتجفاً.. أما كورد فدار حول السيارة ليستوي إلى مقعده، أجل.. هذا هو الأمر.. الكيمياء التي تغنّى بها الشعراء بكل أحاسيسهم.. أسموها الرغبة، أو الشوق.. إنه مثال رائع للرجل، بذلك الشعر القمحي الأصفر، بهذا الوجه المذهل، وبتلك المزايا الفريدة. فمن الطبيعي أن يكون جذاباً.. إن أية امرأة ذات عقل سليم ستكون مهتمة بهذه الجاذبية المميزة.

لكن، لو كانت تلك المرأة هي بابيتي نيكولاس ذات المستقبل المثير المخطط له بدقة على يدها.. فلا شك أنها ستتراجع بسرعة عن مثل هذا التحدي.. إن كورد بلاكبارد بلا ريب رجل ذو تجربة وخبرة ورغم لطفه يعتبر رجلاً خطيراً يصعب نسيانه بسهولة.

إنما لن يضيرها بشيء أن تكون اجتماعية.. هكذا استجابت لحديثه المثير وهما ينطلقان بالسيارة على العشب الأخضر القصير وعلى طريق مسيّج يدور حول محور الجزيرة الرئيسي حتى أصبحا في خليج صغير جميل. قال لها:

ـ هذا خليج «هومستيد».

ـ أوه.. ما أجمله!

تحركت عيناها بإعجاب على الحظائر والمزارع المتوارية المختبئة تقريباً وراء أشجار صنوبر وعلى المنزل الذي يسيطر على الخليج. تعالى منها صوت صفير غريب، وأطبقت يدها على يده فوق المقود.. أوقف العربة بانقياد، دون أن يقول شيئاً فقفزت من السيارة وهرعت إلى الخارج لتتأمل ما أمامها بوضوح أكثر.

إنه منظر مذهل في هذا الجزء من أراضي الجنوب الباسفيكي..

قالت بعدم تصديق:

ـ لا أصدق!

ـ لقد بناه السير فيليب وايد من الأرباح التي جناها من مناجم الذهب..

ـ إنه من خارج هذا العالم.

مبنى على مسطح صغير فوق صخرة تطل على الشاطىء. كان للمنزل اليوناني الطراز شرفات عريضة مدعومة بأعمدة أيونية الطراز مزخرفة.. كان يتألق بوقار بين عدة حدائق متناسقة.

ـ يبدو لي مكاناً ما بين هيكل العذارى في أثينا والقصور ما قبل الحرب.. يا إلهي.. إنه ضخم! لماذا لم أشاهد صوراً له من قبل؟ إن لمعظم المنازل القديمة وثائق مفصلة.. من يعيش هناك؟

قال بصوت جاف: «أنا.. وبما أنه منزلي وبما أنني أحب الخلوة فلن يصوره أحد إلا إذا التقط الصور من البحر».

كان يستند إلى الجانب الأمامي من اللاندروفر، والسخرية تزيد من قساوة قسمات وجهه.. بعد لحظات من الذهول، انفجرت بابيتي تهز رأسها له.

ـ إنك إنسان محظوظ.. ! هل ترتدي قمصاناً مكشكشة وأزراراً من الماس؟ كان عليك أن تطلق العنان لشارب رفيع.

رد بتعال:

ـ هذا وصف يناسب تجار الماس لا مالك مزرعة.. قمصان مكشكشة! أنا أضخم من أن أرتدي ثياباً كهذه فلا تناسبني إلا الثياب البسيطة.

ردت بخفة: «هذا ما يحدد حجم العمل. أليس كذلك؟ ينطبق الشيء نفسه على صغار الحجم أمثالي.. كشكش واحد صغير وأبدو كسارية مركب. أخبرني.. هل منزلك رائع من الداخل كحاله من الخارج؟

ـ لم يكن السير فيليب وايد بعيداً عن التقشف.. تعالي لتشاهديه.

إذن، هذا ما يفسر ثقته بنفسه، ما دام كورد بلاكيارد يملك «موتواروها» فهذا يعني أنه ثري أكثر من أي شخص قابلته في حياتها. راحت تشحذ ذاكرتها علّها تتذكر معلومة ما وكان ويا للدهشة أن تذكرت اسماً:

ـ أركادي بلاكيارد.

ـ إنه ابن عمي، أتعرفينه؟

ابتلعت ريقها، ولم تسترخِ إلا بعدما عادت عيناه إلى الطريق.

ـ لقد التقيت به.. ساعدت على ولادة طفله.

لانت أسارير وجهه المتعجرفة:

ـ آه.. أجل.. كان أركادي مبالغاً في امتنانه.. كانت الولادة على ما أظن متعسرة، وأظنه كان مجنوناً بحب زوجته.

ـ وكانت هي أيضاً مجنونة بحبه.

تذكرت بابيتي بعض الولادات التي اضطرت إلى معالجتها ثم تنهدت.

ارتجف السبانيال عند قدميها، ودس أنفه في ساقها.. وكأنه يقول لها أنت وأنا خارج عالمنا، ولكن قد يكون من المرح زيارة

المكان فترة.

كانت الحدائق حول المنزل استوائية، فيها أشجار ضخمة تظلل الزهور بخاصة منها أزهار الغاردينيا الفوّاحة.

قالت بصوت ضعيف: «ألا يمكنك أن تزرع جوز الهند هنا؟»

ـ هذه الأشجار أصغر حجماً وهي تنمو في جزيرتنا هنا.. فالريح الوحيدة التي تتغلغل في هذا الخليج هي الريح الشمالية الحارة.

ـ هذا رائع.

رفعت بابيتي عينيها المذهولتين فالتقتا بعينيه.

ـ إنه المكان الوحيد الذي أرغب في العيش فيه، أظنني سأذبل وأموت خارج الجزيرة.. والآن، فلننظر أولاً بأمر هذا الحيوان.

بعد مرور ساعة كان الكلب قد استحم وسُرح شعره المتلبد، وتناول الطعام والماء، وأعطي حقنة ضد الأمراض المعروفة في العالم، ووضع في وجار فيه مساحة مسيجة.. راقبته بابيتي بريبة وهي تغادر، ولكنه بدا راضياً. سمحت بابيتي لنفسها بأن يرافقها كورد إلى المنزل حيث جلست في مقعد مريح تحت شجرة ماكراندا مزهرة وقدم إليها الشاي الذي صنعه بنفسه وذلك عندما كانت تغسل وجهها ويديها في حمام فخم صغير غير بعيد عن حديقة المنزل.

قالت محاولة التغاضي عن نظرة الإعجاب في عينيه الذهبيتين:

ـ كنت معي في غاية اللطف، وأظن أن الكلب سيقدّر لك صنيعك.

تحولت نظرته إلى ضحكة دافئة:

ـ تتخاذل جميع الكلاب في مواجهة إبرة.. وأنا أحسده على الطريقة التي دفن فيها رأسه في صدرك. كان الأمر مؤثراً.

ـ أظنني أؤخرك عن عملك.

ـ ليس لدي عمل مهم.. أخبريني عن نفسك.

تحركت كتفاها بهزة خفيفة: «ليس لدي ما هو ذو أهمية لأحدثك عنه».

انضم زيز حصاد آخر إلى الجوقة.. فتناغم صوته الحاد مع الموسيقى الصادحة في الطبيعة.

ـ لماذا اتخذت مهنة الطب؟

ـ لم أرغب قط إلا في الطب. كنت في الخامسة من عمري عندما اتخذت القرار.. ولكن لا بد أن هذا الموضوع يضجرك.

ـ أنا لا أسمح لنفسي بالسأم.. وماذا عن الزواج؟ ألا تشعرين بالحاجة إلى زوج في حياتك المخطط لها بدقة؟

ـ أرى أنك تحب الحصول على ما تريد.. أجل أود أن يكون لي زوج شرط أن يكون مناسباً.

رفع حاجبه الأسود: «هل احترقت بشيء بابيتي؟»

ـ لقد خطبت.. ولم تنجح علاقتنا.

ـ لماذا؟

عضت أسنانها الصغيرة على شفتها السفلى.. أرادت أن تقول اذهب إلى الجحيم. ولكنها ارتكبت غلطة عندما رفعت بصرها إليه إذ أجبرها الطلب الملح في عينيه على قول الحقيقة:

ـ كان طموحاً جداً وذكياً جداً.. أراد زوجة توفر له خدمات ودعماً في أثناء تسلقه السلم. لم يرغب في تلميذة طب تقضي كل وقتها في الدراسة وفي العمل فيما بعد. كما أنني غير بارعة في تحضير وجبة طعام لائقة في ربع ساعة، وأميل إلى النوم حين يتحدث أحدهم عن الأعمال أو التجارة أمامي حتى ولو كان هذا الشخص هو رئيسه.

ـ ألا تجيدين الطبخ؟

ابتسمت بجفاء لأنها ما زالت غاضبة من أسئلته:

ـ أستطيع تحضير وجبة معقولة.. ولكنني لا أزعج نفسي بالوقوف ساعات في تحضير صلصة أو حساء سمك.

ضحك ثم قال: «من المريح أن ألتقي بامرأة لا يهمها أن تكون طباخة ماهرة.. يبدو أن جميع الفتيات الجميلات اللواتي التقيت بهن يقضين نصف حياتهن في صفوف تعليم الطبخ.. وهن يدفعن بسيرة منزلي إلى الجنون عندما يردن مساعدتها..».

رفعت حاجبيها..

ـ وهل احترقت يوماً كورد؟

تكور فمه من ذكرى تعسة وقال بيأس:

ـ أولم نحترق جميعاً في يوم ما؟

ندمت بابيتي لأنها كررت سؤاله بسخرية، لكن بعد نظرة سريعة إليه، وجدت أن تعاطفها لم يكن في محله..

ابتسم لها بسخرية عميقة.. وقال:

ـ زواج، دفعت ثمنه هذه العزلة.

ـ أنا آسفة.

تجهم الوجه القاسي فجأة:

ـ وأنا كذلك.. لقد غرقت وهي تحاول الهرب.

ـ يا إلهي.

اقتربت بابيتي منه لا إرادياً، وارتفعت يداها تشدان رأسه إلى صدرها في حركة تعاطف عمرها عمر الزمن.. أحست بذهوله، ولكن عندما بدأت تنسحب التفت ذراعه حول خصرها.

ـ ابقي هنا.. فيم ستتخصصين؟

ـ في طب الأطفال.

ـ ستكونين طبيبة أطفال ممتازة.. فأنت ذات قلب رقيق.

نظرت إلى شعره اللامع على صدرها.. تحركت مشاعرها فجأة ولم يعد هناك شيء من إحساس الأمومة الذي كانت تقدمه..

تمتم شيئاً ثم جذبها إليه بقوة حتى كادت يداه تقسمان خصرها.. فعضت على شفتها وتغضن جبينها.

ارتعشت ساقاها، وشعرت بألم حاد في رئتيها.. كان كل ما فيها يحثها إلى النتيجة المتوقعة، أسندت خدها على الرأس القمحي، بدا لها الشوق لا يقاوم.. لكنها أدركت أخيراً أن عليها أن تتوقف قبل أن يفلت زمام الأمر من يدها.

عندما لاحظ انسحابها همس كلاماً مختصراً ولاذعاً، ورفع رأسه ليتفرس في وجهها لحظات حتى ماتت الجذوة الملتهبة في عينيه، وعادتا إلى لونهما الكهرماني مجدداً..

ابتسمت بغموض، وتحررت منه.

ـ لست من ذلك النوع من النساء.. بابيتي؟

كان صوته متثاقلاً، ولكنه استعاد سيطرته.. فاستجابت للرنة الساخرة برفع رأسها إلى فوق بتحد:

ـ آسفة لست معتادة على الاستجابة لأحد بعد بضع ساعات من التعرف إليه.

وقف مستغلاً طوله الكامل لينظر إليها بحدة من علو، وعيناه تلمعان بحدة شظايا الذهب:

ـ تفضلين تقديم العزاء لنفسك.. ربما أنت حكيمة.

ـ إنه تصرف آمن من الآخر.. وأنا امرأة حذرة.

أصبح تعبير وجهه مثالاً للسخرية:

ـ وأنا كذلك.. أعتقد أن الغبي وحده يسمح لنفسه بالاحتراق مرتين.

كلامه أكثر من واضح. إنه مثلها ليس لديه نية في خوض

مضمار أية علاقة . . لكن، سيكون من الصعب طرد الصور المترسبة التي كانت تتراقص في رأسها وتغريها حتى كادت تتخلى عن القرار المدروس الذي اتخذته منذ مراهقتها، وأصرت عليه أكثر من مرة منذ ذلك الوقت . . ولكنها لن تستطيع أن تنسى بسهولة إحساسها الغريب الذي تولّد فيها منذ قليل .

* * *

٢ ـ غريزة الصياد

فيما بعد عندما أصبحت في غرفتها الفخمة في الفندق حاولت أن تحلل بالضبط ما الذي جعل ملاحظته تلك تكدرها . . واكتشفت برهبة أن السبب هو تصميمه على عدم الالتزام بما هو أكثر من علاقة عابرة .

قالت لصورتها في المرآة: ولماذا يزعجك هذا؟ أأنت مراهقة تعاني من وطأة مراهقتها؟

ولكنها كانت قد آمنت أنها تستطيع الحصول على كل شيء . . مستقبل مهني كبير، حب عظيم يقود إلى زواج سعيد، أطفال . . المسألة ببساطة مسألة اختيار . . فهي التي اختارت، وهي التي عاشت النتائج . . كما أن ظروف فسخ خطوبتها كشفت لها أن من الضروري لها أن تتبع نداء عقلها .

علمتها التجربة كذلك أن الشغف الكبير هو اسم آخر للجاذبية الجسدية العنيفة . .

تصرف كورد بشرف عندما أوضح لها أنه غير راغب في أكثر من علاقة عابرة . . ولكنه بلا ريب عندما يرغب في أبناء من أجل استمرار سلالته فسيتزوج بفتاة طيبة من مستواه الاجتماعي، سترضى بأن تكون زوجته، وسيدة ذلك المنزل الجميل، وبأن تحمل أطفال «البلاكيارد» ولا شك أن ذاك الزواج سيكون زواجاً سعيداً .

وستكون هي سعيدة أيضاً بزوج أو بغير زوج.

شكرته لأنه تحمل مسؤولية الكلب.. ورد أن عليها ألا تقلق لأنه سيتأكد من إيصاله إلى منزل يحسن أصحابه رعايته. وكان وداعاً، عرف كلاهما معه أن هذا هو عين التعقل.. لكن فيما كانت تهمّ بتركه لامس خصلة من شعرها المسترسل على كتفها. راقبته بعينين مذهولتين.. ثم انحنى يعانقها بسرعة.

قال برقة: «ما أروع معرفتك».

ودعته بصوت حازم أدهشها ثم انطلقت إلى الفندق وهي لا تجرؤ على النظر إلى الوراء. وكان ذلك تصرفاً سخيفاً منها إذ تصرفت كفتاة صغيرة تقع في الحب للمرة الأولى. ولكنها لم تستطع إلا التساؤل كيف سيكون الأمر لو تركته يجرفها إلى عالم اللاتعقل.. ظلت هذه الأفكار تراودها حتى بعد نزولها إلى العشاء.. لذا، كانت سعيدة حين أوصل الساقي إلى طاولتها شخصين آخرين سابحين في هالة توحي بأنهما في شهر العسل.. ابتسما لها.

قالت الفتاة لها:

ـ تبدين وحيدة.. فإن كنت لا ترغبين في صحبة أحد طلبت من الساقي أن يجد لنا مائدة أخرى.

لكن غرفة الطعام كانت ممتلئة، وهذا أمر غير سهل.. هكذا، ورغم استمتاعها بعزلتها، لم تستطع مقاومة الترحيب بهما. بدا أنهما يشعران بالغربة.

قالت العروس لبابيتي:

ـ ساهم جايمس في بناء قسم إضافي في الفندق.. ووجد يومذاك أن من الأفضل لنا أن نقضي شهر العسل هنا. أليس المكان جميلاً؟

وافقتها بابيتي الرأي، ثم راحت تصغي إلى الفتاة وهي تتحدث عن زفافها وعن عمل جايمس الجديد في أحد المكاتب المواجهة للميناء في أوكلاند. تناقشتا في أمر الأزياء، وفي بعض الأمور الحياتية اليومية، ووجدتا شيئاً مشتركاً بينهما، وهو حب السفر.

تناولوا الوجبة، ثم انتقلوا إلى الصالون لتناول القهوة.

قال جايمس وهو يضيف ثالث ملعقة سكر إلى فنجانه:

ـ لا شك أنهم دفعوا مالاً كثيراً على هذا المكان.. أتتصورين أن هذا المكان كان منذ خمس سنوات مجرد خليج صغير ليس فيه سوى بضع أشجار استوائية، وبعض الماشية! ولكن كل شيء بحاجة إلى المال.. أعتقد أنك لو كنت تملكين مالاً بمقدار ما يملكه كورد بلاكيارد لما قلقت على إنفاقك المال للحصول على أشياء كثيرة. إنه يملك باقي الجزيرة كذلك، عاشت عائلته هنا منذ زمن بعيد.. يا له من رجل.

تبادل العروسان ابتسامة ثم قالت العروس:

ـ تقول هذا لأنه أطول منك.. صحيح أنني لم أشاهده ولكن حين كان جايمس هنا رآه وزوجته كثيراً.. كانت النساء يحمن حوله حتى وهو متزوج.

قال جايمس: «لكنه لم يكن يهتم بهن فقد كانت زوجته أجمل امرأة رأيتها في حياتي. كانت أشبه بنجمة سينمائية أو بعارضة أزياء. كنا نراها أكثر منه لأنها كانت تمضي الكثير من الوقت هنا وهناك.. كانت تحب الاستمتاع بوقتها.. أما هو فلم نره قط».

من السهل أن يلاحظ المرء أنه لا يفهم كيف قدر كورد بلاكيارد على إهمال زوجة كزوجته.

قالت العروس التي راحت تكرر شائعات صادقة:

ـ كان موتها رهيباً. فقد انطلقت وسط عاصفة غضوب في أحد

مراكبهم، واصطدمت بالصخور في مكان ما على الجانب الآخر من المضيق. . في التحقيق، تبين أنهما تشاجرا، فجنَّ جنونها بشكل دفعه إلى الإقفال عليها في غرفة نومهما. لكنها خرجت بطريقة ما، وركبت البحر. . كل هذا لأنها أرادت الذهاب إلى حفلة راقصة! لا شك أنها كانت مجنونة.

قال جايمس موافقاً وكأن ما يقوله يشرح الأمر.

ـ كانت صهباء (حمراء الشعر).

قالت بابيتي بأسى متذكرة تعابير كورد الساخرة حين ذكر المرأة التي وجدت بيته الجميل سجناً.

ـ إن ذلك لرهيب!

قالت العروس:

ـ يُظهر هذا أن المال والجمال لا يغنيان المرء عن أمور أخرى. . لا أعرف ما إذا كنت ألومها. . حقاً. . هذا المكان رائع في الصيف ولكن تصوري ما قد يكون عليه في الشتاء. . منعزل عن العالم أياماً. . و.

ضحك زوجها: «هيا الآن. . ليس الأمر بهذا السوء! إن العاصفة الهوجاء وحدها قد تعزل مكاناً كهذا إنما بكل تأكيد ليس لأيام».

أعلنت العروس: «حسناً جداً. . أنا لن أرغب في العيش في مكان بعيد عن المحلات».

بعد وقت قصير، تركها العروسان ليرقصا. . شربت بابيتي فنجان قهوة آخر. . ثم صعدت إلى غرفتها.

استيقظت على رنين الهاتف. عندما مدت يدها بحثاً عن السماعة كانت أجزاء من حلم عن امرأة صهباء الشعر تهرب صارخة من رجل طويل الجسم، تلاحقها.

بدا لها صوت كورد وكأنه تتمة للكابوس، فذعرت:

ـ ماذا تريد؟

ـ أريدك أنت. . إن كلبك يرفض الطعام ولا يكفّ عن العواء.

طار الحلم وحلَّت محله عقدة ذنب:

ـ يا إلهي. . أنا آسفة.

ضحك: «أجل. . من الأفضل أن تكوني آسفة! إذ لم نقضِ ليلة مريحة هنا. . سآتي لاصطحابك بعد نصف ساعة».

ـ هاي. . انتظر لحظة. . فأنا. .

ـ لا تقلقي بشأن الفطور. . نصف ساعة.

ارتدت بابيتي فستاناً صيفياً قطنياً أخضر اللون، أبرز لون بشرتها الخالية من العيوب، ما إن نزلت إلى البهو حتى سمعته يصغي إلى المدير الذي اسمه بوبي كمينغ، والذي نعته بأنه غبي أمام الوجه الجميل.

انتظرت على بعد قليل، غير راغبة في التدخل في ما بدا أنه حديث جاد. . وجدت نفسها تتساءل عما الذي يجعل هذا الرجل منتصباً هكذا. فالرجل الذي معه، كان بطوله تقريباً وهو إلى ذلك أبهى طلّة. . ولكن رفيقه كان يستأثر بكل الاهتمام. . التفت كورد ليراها.

قال برقة وهما يلتقيان: صباح الخير.

في تلك اللحظة، مرت امرأة أنيقة مثيرة ترتدي ثوباً صيفياً، ركزت بصرها على كورد، في دعوة مفتوحة. . ومن يستطيع لوم كورد لو قبل أحياناً مثل هذه الدعوة الصارخة؟

قال كورد وهو يصعد إلى اللاندروفر:

ـ أرجو ألا يكون عندك خطط لهذا النهار؟

ـ أبداً. . ما دمت هنا لا أنوي القيام بغير التكاسل والاستجمام

بأشعة الشمس.. كورد أنا آسفة على ما فعله الكلب.. هل استمر في العواء طوال الليل؟

ـ لا.. ليس بعد منتصف الليل.. فبعدما خرجت إليه وأدخلته إلى غرفة نومي نام.

قابلت نظرته الجانبية الساخرة، برجاء:

ـ أوه.. يا إلهي! أنت تمزح؟

ـ آسف.

ـ لكن ماذا سأفعل؟ إن تابع عواءه هكذا.. فلن يقبل به أحد، ولا أظن أن من الإنصاف له تركه وحيداً كثيراً.. إن الطيبة أمر غير مستحب دائماً.

اقترح بعفوية: «يمكنك المجيء للعيش معي.. وحتى تنتهي عطلتك يخلق الله للمشكلة ألف حل. أظنه هدأ الآن وعلى ما أعتقد أنه يعاني من نوع من انهيار عصبي. وسيشفى بسرعة.. فالسبانيال كلاب مرحة عادة».

ـ هذا لطف كبير منك..

ـ كلام سخيف.. المسألة أنني بحاجة إلى ست ساعات نوم على الأقل وهذه حال موظفيّ أيضاً وضيوف الفندق بالطبع.. فإن هرب الجميع من قلة النوم خسرت شريحة كبيرة من إيراداتي لذا من صالحي أن أعرض عليك غرفة في منزلي حتى موعد رحيلك.

كان يتحدث بطريقة منطقية جعلت بابيتي تتقبل الخطبة الصغيرة بجد.. وعندما لمحت تحرك عضلة قرب فمه.. ضحكت قائلة:

ـ تجعل الأمر يبدو منطقياً.. ولكنك بلا ريب لا تحتاج إلي.

تبع هذا صمت قصير غريب.. ترك لها الوقت لتفكر في كلمات أخرى ما كانت لتكون مثيرة كتلك التي تفوهت بها.

ـ بالتأكيد لا أحتاج إليك.. ولكنني سأخفي مشاعري هذه

بالقول إنني مضطر إلى تحمل صحبتك.

ـ أعتقد أنه عليّ العودة إلى بلادي.

ـ تفيد التقارير الجوية في هذا اليوم أن منطقة أوكلاند تعاني من مناخ شديد الرطوبة.

عرفت بالضبط ما يعني، أياماً رطبة وليالي لا تطاق.

ـ يا إلهي!

ـ بالضبط.. ليس ذاك المناخ مناسباً لمريضة تتماثل للشفاء. وعدني بوبي بتوضيب ثيابك التي سيرسلها سريعاً.. لذا أقترح عليك أن تحضري نفسك للقاء الكلب.

جعلها بذلك غير قادرة على قول شيء. نظرت من النافذة الأمامية إلى اليوم المشرق المشع فحاولت جاهدة تجاهل الإثارة العميقة في داخلها.

قالت: «العشب في حالة جيدة. أعتقد أن المطر الربيعي يساعد على هذا».

ـ صحيح.. وما يساعد أيضاً الأمطار الموسمية التي تتساقط كل أسبوع تقريباً في الصيف. لقد كان هذا الموسم جيداً.

ـ لا شك أنكم تعانون كثيراً في مواسم الجفاف.

ـ إن أسبوع واحد بلا مطر استوائي قد يسبب الجفاف..

ـ وكيف تتعاملون مع هذا؟

ـ هناك خزانات لجمع الماء في كل الجزيرة.. وقد حفرت عدة آبار.. وزرعت أشجاراً تمتد جذورها عميقاً في التربة وتتحمل الجفاف.. وفي بعض الأحيان أنقل الماشية إلى البر الرئيسي.

ـ هل لديك مزرعة هناك؟

ـ أجل.. ولكنها ليست للقطعان الكبيرة.. في بداية كل صيف أرسل إليها ما أعتقده ضرورياً فقط.

عاشت بابيتي حتى بلغت العاشرة من عمرها في بلدة ريفية صغيرة في وايكاتو وهي منطقة تنتج الألبان والأجبان.. ولكنها حملت معها اهتمامها بهذه الأشياء إلى المدينة.. لذا راحت تطرح الأسئلة التي كانت تحوي بمعظمها جهلاً لم تحاول إخفاءه.. رد عليها كورد باختصار، لكن بدقة.. كان حولهما خليج «هاوراكي» يلمع كذنب طاووس تحت أشعة الشمس، كان من المؤلم النظر إليه مباشرة..

سألت بابيتي:

ـ وماذا عن الغزلان؟

ـ الغزلان؟

ـ ألا يربيها الفلاحون هذه الأيام؟ وماعز انغورا؟ أنا واثقة أنني قرأت أنهم في المناطق الشمالية يبيعون قطع ماعز الانغورا بسعر مرتفع.

ـ مستقبلنا هو في التنويع.

نظرت بابيتي بلهفة وهما يمران بالمباني حيث أدوات لا يحتاجها إلا مشروع زراعي كبير. كان المكان وكأنه قرية صغيرة.. ازداد تأكدها هذا بعدما مرا بمنازل قرب الشاطىء وباسطبل.

فسألت:

ـ هل هذه مدرسة؟

لوّح كورد لرجل جالس فوق تراكتور كبير:

ـ أجل.

ثم خفف سير السيارة ليتجنب قطة قفزت أمامه.

ـ لقد أضفنا إليها غرفة أخرى.. للعديد من موظفي الفندق عائلات هنا وعدد التلاميذ يزداد.

ـ لكن المسافة بعيدة عن الفندق.

ـ يأتون بباص خاص.

ـ وكأنها قرية صغيرة.

ـ أجل.. عندما بُني الفندق فقط أصبح لدينا كهرباء.. في الشتاء تستطيعين الوقوف على أعلى قمة، وتذوق رذاذ الملح..

ما إن انطفأ المحرك، حتى هاجم أذنيها عويل مرتفع مزعج.. فقالت:

ـ يبدو في غاية البؤس.

وبدا لها يائساً كذلك، كان مربوطاً إلى كرسي، تحيط به أنواع عديدة من الألعاب القابلة للعض.. تتراوح ما بين شكل عظمة إلى شكل قطعة جبن. ولكنها لم تمسّ جميعها.. كانت ثلاث قطط واقفة تراقب الدخيل.. توقف العويل رأساً حينما رأى الكلب بابيتي. وبدأ جسده النحيل بالارتجاف، وأخذ يشد نفسه إليها.

ركعت بابيتي مشفقة:

ـ يا للمسكين الحبيب.

وضمته إليها.. مضى وقت طويل قبل أن يهدأ الكلب الخائف تحت تأثير كلماتها ويدها الرابتة..

قال كورد: «حاولي إطعامه».

وراح يأكل ملتهماً كل ما وقعت عليه عيناه. ولكنه لم ينسَ مراقبة من يعتبرها سيدته، وراقبته القطط بازدراء وهو يشرب الماء كله ويبلل أذنيه.. وحين نفض نفسه هربت منه بسرعة. تلاقت نظرة بابيتي بنظرة كورد المذهولة.. ولم يتكلم أيّ منهما حتى تنهد الكلب وجلس بثبات عند قدميها.

نظرت إلى كورد نصف ضاحكة ونصف مرتبكة من وجه الكلب الأشعث الراضي:

ـ هذا أمر سخيف.

وصمتت لأنها قرأت على وجهه المشاعر التي اشتعلت بينهما بالأمس.. صدمها الخوف والإثارة، واستجابتها الشديدة له.

كم من الوقت وقفا هكذا مسمرين؟ ربما كانت بضع لحظات.. مع ذلك، فقد بدا لها في تلك اللحظات أنها أصبحت شخصاً آخر.

قاطع صوت سكوتهما صوت امرأة تناهى إليهما من داخل الباب:

ـ حسناً.. هذا أمر مريح.

كانت صاحبة الصوت امرأة خلابة في منتصف الثلاثين من عمرها، ترتدي مبدعة بيضاء كبيرة وقميصاً قطنياً وسروالاً قصيراً. حاولت بابيتي التماسك.

قال كورد بلهجة مرحة وهو يقدم مدبرة منزله:

ـ آه.. أورا..

قالت أورورا بنجامين بلطف: «صدقيني.. نحن مسرورون لرؤيتك.. لقد بدأ يزعج الأولاد».

وابتسمت لبابيتي ابتسامة بعيدة كل البعد عن الدفء.. فتمتمت بابيتي: يا إلهي!

تحرك الكلب عند قدميها.. كان دافئاً ثقيلاً وأحست بحركة ذنبه.. فقالت له متذمرة:

ـ أرأيت ما فعلت بي.. ها أنا أقضي وقتي أعتذر عن تصرفك مع أنني أكاد لا أعرفك.

عطس الكلب بأدب، وزاد من إيقاعات ذنبه. قال كورد: «تعالى واغسلي يديك.. على الشرفة أورا؟»

ـ أجل.. وهو جاهز.

كان الفطور لذيذاً.. سمك طازج مع الحامض والتوابل وخبز

أسمر، وعصير. ثم القهوة البعيدة كل البعد عن تلك الفورية التي اعتادت عليها بابيتي..

قالت بابيتي متهورة: «تعيش في أفضل مكان في العالم».

ـ في هذه اللحظات.. لكن فتنته تخبو بسرعة.

حسناً.. لا يهمها أن يعتقد أن جميع النساء يجدن الحياة في مثل هذه الجنة الصغيرة أمراً مملاً بعد بضعة أشهر ما دام غير مستعد للاعتراف بأن زوجته كانت امرأة سطحية غير قادرة على التعامل مع واقع الحياة، فهي بكل تأكيد لن تحاول إقناعه.

ابتسمت له ابتسامة مشرقة، وقالت بخفة:

ـ بما أنني لن أرى المكان في الشتاء، فلن أهتم إلا بما أراه حالياً.. في هذه اللحظات أعتقد أن «موتواروها» جنة عدن.

ارتفع حاجبه بصمت وسخرية. ولكنه لم يعلق بشيء، بل أشار إلى باخرة سياحية ضخمة كانت تشق عباب البحر من المضيق إلى ميناء «وايتيماتا». جاءت أورورا بنجامين لتقول إن شخصاً يريد رؤيته.. بعدها اعتذر وغادر.. فسألتها مدبرة المنزل إن كانت تريد شيئاً آخر.

ـ لا.. شكراً لك.. كان الطعام ممتازاً.

ـ شكراً لك.

بدا رد المرأة بارداً، ولكنها لم تسمح لنفسها أن تتأثر بهذا البرود. إن كانت تنوي مغادرة الجزيرة بقلب سليم فعليها عدم التأثر بشيء وعدم التورط بل قبل كل شيء عدم الدخول في معارك عاطفية أزعجتها بالأمس، وهذا الصباح.

ولو كان لديها بعد نظر كاف، لهربت إلى البر الرئيسي في أسرع وقت ممكن.. ولكن ذلك سيكون جبناً، وما دامت متعقلة لن يصيبها ضرر.. وإن كان هناك ما قد تفتخر به، فهو رجاحة عقلها.

سألت بابيتي المرأة عما إذا كان بالإمكان أن تساعدها بجلي الصحون. . فردت بحزم:

ـ لا. . شكراً لك. . لماذا لا تنتظرين هنا حتى عودة كورد. . فهو لن يتأخر. . سيحتاج هذا المركب وقتاً طويلاً ليمر بالمضيق.

ـ فكرة صائبة.

راقبت بابيتي المرأة وهي تنظف المائدة مفكرة. بعد رحيلها سارت والكلب قاصدة المرجة. غرّد شحرور أسود كسول، بصوت مرتفع ثم طار إلى أغصان شجرة وارفة. . رفعت بابيتي وجهها إلى دفء الشمس مبتسمة. ثم نظرت إلى الكلب تزجره:

ـ يجب أن تخجل من نفسك. . ها أناذا أواجه أخطار الحياة بسببك. ما هو اسمك على أي حال؟

جلست على العشب الأخضر، وبدأت تكرر أوصافاً وأسماء على أمل أن تحصل على استجابة تشير إلى اسمه. . كان رأسه إلى جانب واحد ولسانه ممدوداً وذنبه يضرب بسرعة. جلس يراقبها بعينيه السوداوين.

أعلن صوت خفيف شبيه بمواء هرة عن وصول كورد. . قالت له بقليل من انقطاع الأنفاس.

ـ أظن أن لاسمه علاقة باللون البني. . براون. . أترى أنه يبتهج لسماعه. . براون. . براون.

ـ ما رأيك باسم «براوني».

ـ بالطبع!

كان السبانيال جالساً الآن ينقل بصره من أحدهما إلى الآخر بسرور. قالت بابيتي: «لكنه ليس اسماً أصيلاً».

ـ لا. . لكنه وصفي، فلونه الأسود يصبح بنياً قاتماً تحت أشعة الشمس. . الآن وقد عرفنا هويته. . أترغبين في مرافقتي للقيام بنزهة

في السيارة؟ أنا مضطر للذهاب لأتفقّد سياجاً.

سمحت له بمساعدتها في الوقوف. . ثم قالت:

ـ لست مضطراً إلى تسليتي. . أدرك أن الوضع مربك لك ولي. . أنا أشكرك شكراً عظيماً ولكنني سأكون أكثر من سعيدة في الاستلقاء تحت أشعة الشمس. لا أريد أن أكون متطفلة.

ضحك ومرر اصبعه على أنفها المستقيم:

ـ لا أستطيع تصورك متطفلة. . فليس لك الوجه أو الشكل الذي يزعج. . لو كانت أمي مكاني لقالت إنك نوع خاص من النساء.

هذا كل شيء. . إطراء عفوي قاله بفتنة وبعدم اكتراث، مع ذلك كان تأثيره فيها مذهلاً. . حاولت مقاومة دوار حار بكل قوتها، وتحررت منه لتتراجع خطوة فرأت أن التسلية تلاشت وأن الذهب في عينيه أصبح متوهجاً. . عرفت أنها رمت نفسها بلا تبصر في موقف لن تستطيع التعامل به.

قالت: «أنت تدفعني إلى التوتر».

ضحك على كلامها بصوت عميق. .

ـ أنت تشجعين غريزة الصياد فيّ.

ـ هذا يبدو تعصباً شوفينياً وقسوة.

ارتفع حاجبه الأسود مرة أخرى بطريقة ساخرة:

ـ كل الرجال صيادون في أعماقهم. . ألا تعرفين هذا؟ الحب قد يوصف بطرق عدة ولكنه في الأساس استسلام وخضوع. . سيادة وانتصار. التودد نموذج للمطاردة، والنهاية محتومة. . موت من نوع ما. . البعض يصفه بالموت الصغير. . وبعضهم بإشباع الرغبة ولكن الحب أقرب عملية توصلنا إليها على الأرض لملذات الجنة. . لذا، إن كنت تنظرين إلى نفسك كطريدة، يا طبيبتي الصغيرة. . فأنت على حق.

قالت مذعورة من سخريته:

ـ ما دام هذا ما تؤمن به حقاً فلا عجب أن تتركك زوجتك.

دارت الكلمات المتهورة كدوي الرصاص فتشتّت الهدوء واخترقت الجو الساكن الحلو كالصاروخ، تسمرت بابيتي في أرضها.. ونظر إليها بعينين فارغتين لا مشاعر فيهما ثم قال:

ـ لا شأن لك بهذا.

قالت خجلة من نفسها:

ـ لا.. ما كان عليّ أن أقول تلك الكلمات. صدقني لم أقصد ذلك ولكنني لا أؤمن بالهراء الرومانسي الذي غالباً ما يسميه الناس حباً فقد رأيت الكثير من الزيجات الجيدة بين أشخاص معجبين ببعضهم بعضاً ولكنهم لم يستمرا في التقدم.

ـ وهل أنت خبيرة بما يحرك الزواج؟

ـ أنا لا أعرف ماذا يعني.. لكن لدي أصدقاء.. حين يكون هناك مصالح مشتركة وتكامل، فللزواج أساس متين.

ـ والحب؟

هزت كتفيها: «ما هو الحب؟ اسأل مئة من الناس فتحصل على مئة وصف مختلف.. أظن أن الحب يأتي فيما بعد».

بحثت عيناه في وجهها:

ـ أراك أسوأ حالاً مني. أنا على الأقل أتسامح مع الحب، أما فكرتك عن الزواج فتبدو كعاطفة صديقين حميمين!

ـ وفكرتك تبدو كزواج نمرين.. شاهدته يوماً على التلفزيون. قصير المدى، عنيفاً، ودموياً وخالياً من العاطفة.

أحست وكان الجو حولها يضج وأن صرير زيران الحصاد يجرح أعصابها.. كان ما زال ينظر إليها بإعجاب يجردها من إنسانيتها ليُنزلها من عليائها.. لا شك أنها اعتادت حتى الآن على رجال

يقوّمونها فقط لجمالها الرقيق. كان يصعب على بعضهم تقبلها كطبيبة منافسة.. فلماذا تشعر بالارتباك لأن كورد بلاكيارد لم يكن أكثر تفهماً؟

ولكن ما كان عليها أن تقول ما قالت.. غضبها هو الذي دفعها لتعبر حدوداً خفية.. مسيجة بلوحة «ممنوع الدخول». إنها حدود ممنوعة، خلفها الخطر يتربص، في خطوات الرجل الرشيقة الساكنة أمامها.

ظنته في لحظة توتر سيطلق الخطر من عقاله. احترق في عينيه إحساس أقوى بكثير من الاحتواء، ولكنه استطاع أن يكبحه بطريقة جعلتها ترتجف لوجود شيء فوق طاقة البشر فيها.

قال برقة وكأنهما يتناقشان في أمر كتاب ما:

ـ نحن غير متفقين.. لكن عرضي للقيام برحلة إلى التلال ما زال قائماً. لن تطول غيبتنا وسأتمتع بصحبتك.

وهذا لطف كبير منه.. هزت بابيتي رأسها:

ـ أجل.. سأحب رؤية جزيرتك.. شكراً لك.

بعد عشر دقائق، كانا منطلقين بالسيارة باتجاه أعلى قمة جبلية في الجزيرة.. تحذو حذوه في تبادل الأحاديث السهلة عن تسلق الجبال، وعن أفضل طريقة لتدريب كلب بالغ، وعن التاريخ المعروف لقبيلة «الماوري» التي حولت عدة تلال هناك إلى قلاع، في الأيام التي سبقت الأمراض السارية وهجوم البنادق التي أخفتها من الوجود بشكل درامي.

أخبرها عن نوادر الحياة على الجزيرة، مختاراً القصص المفرطة بالخيال التي ربطتها ببعض أكثر تجاربها مرحاً وهي تلميذة طب.

* * *

٣ ـ كذابة!

ـ ألم تفكري قط في ممارسة الطب العام؟

ـ لا.

في صوتها حزم.. كان كورد يقود اللاندروڤر في آخر سفح شديد الانحدار.. ثم توقف تحت شجرة وهناك أطفأ المحرك، انحنى إلى الأمام ينظر إلى المنحدر أمامهما بعينين ضيقتين بسبب أشعة الشمس المنعكسة على سطح البحر.. كانت ذراعاه السمراوان تتناقضان لوناً مع قميصه.. ثم استرخت يداه.

قالت تكمل الحديث:

ـ عرفت ما سأفعله منذ كنت في الخامسة.. كانت أمي تقول إنني في طفولتي لم أكن أبكي عندما أحقن بإبرة بل كنت أهتم بما يجري.. ولكن عندما بلغت الخامسة، وقعت عن شجرة وجرحت ركبتي جرحاً جعلني بحاجة إلى عناية طبية.

مررت أصابعها على أثر الجرح في ركبتها.

ـ و..؟

ابتسمت: أتذكر ما حدث. كان الأمر مذهلاً.. فقد جلست شاخصة العينين وهم ينظفون الجرح ويقطبونه. بعد ذلك كنت أذهب بمفردي إلى العيادة متى استطعت.. كان الطبيب في غاية الطيبة.. لكنني كنت بلا ريب مصدر إزعاج له.. حتى حاول إقناع والدي بأن

اهتمامي بالدم والجروح أمر غير طبيعي.. لكن جهوده ذهبت سدى.

تراجع كورد في مقعده. لامست أنامله يدها التي تلامس آثار الجرح.. ولكن لمسته هذه كانت مثيرة جداً.. لم تستطع سحب يدها من يده.. جلست بلا حراك تتطلع إلى جانب وجهه الساهم، بعينين متسعتين.

أخيراً تمكنت من القول:

ـ ثم انتقلنا.. بقيت سنوات بعيدة عن عيادة طبيب، لأنني كنت طفلة سليمة الجسم.

ـ لماذا انتقلتم؟

ـ تطلق والداي.. كان والدي وكيل بيع مواشي، وكان مضطراً للذهاب إلى حيث ترسله شركته.. وهذا يعني السكن في الريف.. كان يستمتع بالحياة الريفية. أما أمي فكانت تحب المحلات والمسرح.. وربما في المسألة أكثر من هذا.. ولكن هذا ما شرحاه لي.

قال: «أمر قاس».

رفع يده يمسك خدها لحظة قبل أن يتركها. أخفت ردة فعلها بهزة من كتفيها:

ـ لقد تخطيت قساوتها.. فالوقت كفيل بتضميد أصعب الجراح.

داعبها قائلاً: «أرى أنك ممن يستسلمون.. يجب أن نفعل شيئاً بشأن هذا السياج قبل أن تلهيني عنه.. ضعي هذه القبعة، ستحرقك الشمس هنا».

كان الجو حاراً داخل اللاندروڤر، ولكن الحرارة خارجه كانت أشد. شهقت بابيتي بسبب قوتها وشكرته لأنه فكر في القبعة فقد

شاهدت حالات عديدة من سرطان الجلد.

قالت بابيتي وهي ترى الكلاب تختبىء تحت السيارة هرباً من حرارة الشمس.

ـ يا لجبنها!

ـ الكلاب حكيمة لأنها فضلت الهرب من حرارة الشمس.

عبس عندما رأى العمود الاسمنتي الذي انقسم نصفين.. راقبته وهو يفتح صندوق السيارة ليخرج عموداً آخر رماه على كتفه.. فسألت:

ـ هل أستطيع تقديم يد المساعدة؟

ـ اجلبي الرفش لو سمحت.

كان في السيارة عدة أدوات مثيرة للاهتمام، فحملتها كلها، ولكنها ناءت تحت ثقلها. قبل أن تصل إلى نصف الطريق، عاد ليحمل عنها الحمل الثقيل.

ـ لا تكوني حمقاء.. اجلسي تحت ظل تلك الشجرة.

أطاعته بخضوع، وجلست تلف ذراعيها حول ركبتيها، تريح ذقنها عليهما.

راحت تتأمله: يا الله ما أضخمه! كانت بشرته التي أحرقتها أشعة الشمس تلمع بالعرق. أما عضلاته فتحركت بقوة. كانت رجولته بارزة بحيث أيقظت فيها مشاعرها.

شدت مرتين يديها بقوة لتوقف ارتجافهما الذي كان ينبعث من أعماقها.. آه ما أروعه!

كان كورد يعمل على تثبيت العمود وبدت ذراعه المشدودة ترتفع وتهبط بتواتر منتظم.

انصبت الشمس بوحشية برونزية فقتلت النسيم. وما زالت بابيتي تراقبه وهو يعمل على تثبيت العمود الذي استقام أخيراً.

قال بعدما استعادت بابيتي وعيها من الذهول المثير، وهمَّت بالوقوف:

ـ ابقي حيث أنت.

عادت تجلس على العشب الجاف. أما هو فوضع العدة في مؤخرة السيارة وأخذ حقيبة عازلة للحرارة، وجلس قربها:

ـ خذي هذه.

في الحقيبة ابريق من عصير الباباكو القوي الأسيد الحلو المذاق، العطر الرائحة، وبعض البسكويت وترموس من الشاي.

صبت بابيتي الشاي الذي احتساه كورد بسرعة رغم سخونته.

قالت: «فنجان آخر؟»

لم يهزأ بلهجتها الرسمية السخيفة بل قدم لها كوبه وراح يحتسي الكوب الثاني ببطء، أما هي فكانت تجرب عصير «الباباكو» الأصفر.. عندما انتهى من احتساء الشاي، استند إلى جذع الشجرة، وأخذ يتنفس برضى.. كانت عيناه على المنظر تحتهما.

إنه يستحق النظر إليه، امتدت الجزيرة حتى البحر الأزرق الفضي وكانت ترزح قبالتها جزيرة رائعة.

انتهت العطلات وها هي اليخوت تكاد تتلاشى.. ولكن في كل مكان تتجه فيه العين، كان هناك شراع أبيض تقليدي بين الألوان الحديثة البراقة.

استطاعت بابيتي أن ترى من بعيد «رانغيناتو» أحدث جزيرة بركانية في الأرخبيل. من خلفها، ومضت أوكلاند بمبانيها.. بدت الأرض الرئيسية أشبه بحلم خرافي يطل من بين ضباب حلم غير حقيقي. من وراء كل هذا، كان جبل «موبهو» يرتفع بجلال.

قال كورد بصوت هادىء: «لقد رأيت معالم كثيرة ولكنني لم أجد منظراً كهذا».

أملت بابيتي ألا يظهر الفضول في لهجتها:

ـ وكأنك تكره أن تبتعد عنه.

تحركت الكتفان العريضتان قليلاً:

ـ عشت وأنا بين العاشرة والحادية والعشرين بعيداً، في مدرسة داخلية، ثم التحقت بالجامعة قبل أن أعمل في أميركا. وبعد ذلك تجولت سنة في أوروبا. وما إن عدت إلى هنا حتى قررت عدم مغادرة هذا المكان ثانية وهكذا بقيت.. إنه منزلي، بلدي، ولكنني أقضي كثيراً من الأوقات بعيداً عنه.. أؤمن أحياناً أنني لن أشعر بالسعادة إلا وأنا هنا.

هزها صدق كلماته، وقالت ببطء:

ـ أنت محظوظ.

ـ محظوظ؟ أعتقد أحياناً أنها لعنة. فعبادة الأشياء هي خطيئة ونحن ندفع دوماً ثمن خطايانا.. وكل هذا حكم عادل، كما أعتقد، ولكن في بعض الأحيان يدفع آخرون ثمناً لها معنا. لا أعتقد أن الرجل الذي كنت خطيبته شعر بالسعادة عندما نبذته لتأتي في عطلتك؟

ـ لا.

ـ نحن متشابهان.. ربما ينقصنا جزء رئيسي من الإنسانية.. فعالمي بالنسبة لي أهم بكثير من الحب.. وأنت.. أنت لا تؤمنين أصلاً بالحب.. أليس كذلك؟

جعلها تبدو حالة شاذة عن القاعدة ولكن الصدق أجبرها على الاعتراف بصحة استنتاجاته.. هزت رأسها لكن تقبلها للواقع ظهر عليها إضافة إلى ترددها.. فقد ضحك ساخراً، ورمى ذراعاً قوية حول كتفيها، ليجذبها إليه.

قال يوقف احتجاجها:

ـ اجلسي هادئة.. إلا إذا كنت تجدينني غير جذاب لتجلسي قربي؟

توقفت عن المقاومة واسترخت:

ـ لا أكره رائحة العرق الذي منبعه العمل الشريف فالدم أسوأ رائحة منه ولكنك حار جداً.

ـ وأنت باردة حلوة كالغارديتيا في حديقتي.. ناعمة وعطرة، ملؤك رائحة الليمون، وضعيفة كزهرته.

حاولت كسر سحر كلماته بقولها بحدة:

ـ الواقع أن حول شرايبني جدران قاسية لذا ستضطر إلى وخزي بشدة كما أنني لست ضعيفة.

أحست بضحكته ولم تسمعها:

ـ ليس وخزك هو ما طرأ على بالي، يا قلبي.

وقعت كلمة التحبب هذه في قلبها فاستجابت لها حتى كادت تسأله عما الذي طرأ على باله.. لكنها ترددت.

أرادت أن تصحح معلوماته في شيء واحد:

ـ أنت على خطأ لأنك تقول إنني لا أؤمن بالحب.. فالغبي وحده يقول إن الحب غير موجود.. قلت إني أؤمن أن من الغباء النظر إلى المشاعر عبر نظارتين ورديتين.. فعلى الحب أن يكون مكتسباً. حتى ان حب الأم لوليدها يحتاج إلى فترة نمو.. الأم لا تحب وليدها آلياً.

ـ وبعضهن لا يبلغن هذه المرحلة. احمدي الله لأنك لن تبقي هنا طويلاً، فلديك ميل طبيعي للانحراف.

ـ حقاً!

أخذ صدره يعلو ويهبط وهو يضحك:

ـ يا له من صوت مخيف! كل ما كنت أفكر فيه هو بعض الغزل

كوسيلة راحة لرجل عامل. مع ذلك من الأفضل لنا أن نعود.. لدي كومة رسائل أرد عليها، وأظنك تشعرين بالحر.

أصمتها الغضب الجارف.. عانت من يده التي ساعدتها على الوقوف.

قالت وهما يتوجهان إلى السيارة:

ـ أتساءل عما إذا كنت تدرك أن ملاحظتك تلك شوفينية ملؤها التعصب. أتظن أن من حقك اعتباري وسيلة راحة؟

ـ لا تنفعلي هكذا لأنني لن أفرض نفسي عليك، لكنني لا أستطيع أن أفهم لماذا..

قاطعته بجفاء: «أنا لا أميل إلى علاقات عابرة».

ـ عابرة؟ يا قلبي.. قد يكون تجاوبك عابراً، لكنني أؤكد لك أن تجاوبي ليس كذلك.. فأنا مثلك لا أنظر إلى المشاعر من منظار ضباب رومانسي وردي.. لذا لا حاجة إلى القلق أو الخوف على قلبي من الانكسار. يرضيني أن أرى امرأة تتصرف كالرجال في مثل هذه الأشياء.. فذلك أمر غير عادي كذلك.

رفعت يديها إلى الأعلى:

ـ يا إلهي! العجرفة الذكرية اللامتناهية!

أخذ يضحك عليها.. لانت قسماته من تأثير المرح، وأدركت أنه كان يمازحها.

ـ أنت شيطان! أراهن أن ما من فتاة صغيرة سلمت منك في صباك.

ـ اسألي أورا.. فقد ترعرعنا معاً.

وهذا ما يفسر حذر مدبرة المنزل.. ربما تشعر بالتملك إزاء كورد.. وإن كان الأمر كذلك فعلى الأرجح أنه الشكل الوحيد للتملّك الذي قد يسمح به.. فهو راض كل الرضا عن حياته.

في مكان ما، قرأت أن الإنسان الساخر هو رومانسي مجروح، إن تحطم زواج أبويها هو الذي جعلها تتخذ هذا الموقف من أي التزام، ثم جاءت خطوبتها فأكدت لها أن من الضروري أخذ جانب الحيطة والحذر. لم يكن خطيبها الوحيد الذي جُرحت مشاعره. لا شك أن زواج كورد جعله قاسياً وهذا يعني أن المرأة التي تقع في هواه تسعى للمتاعب.. فهو يضع الشروط، ويحدد الحدود، ومع أنه أكثر الرجالا تصميماً، رأت أن تحت هذه الواجهة الساخرة فولاذ.

مر سائر اليوم بهدوء.. بعد استقرار بابيتي في أرجوحة عريضة تحت شجرة مزهرة، اختفى كورد في مكتبه. بعد قليل وصلت أورورا بناء على تعليمات مسبق حاملة إبريقاً كبيراً من الليموناضة فيه مكعبات ثلج. وضعته على الطاولة في متناول بابيتي ثم ابتسمت لها بتحفظ.

أغاظت تلك الابتسامة بابيتي.. كما أغاظتها المجلات التي حملتها إليها.. كانت مجلات كبيرة لماعة مليئة تقريباً بصور عارضات في ثياب بشعة.

سألت: «أخبرني كورد أن ملابسي في الطريق إليّ.. فهل وصلت؟»

ـ أجل.. إنما لم يتسنى لي الوقت لأخرجها من الحقيبة.

اللعنة عليك.. نزلت بابيتي من الأرجوحة بطريقة غير وقورة.. وقالت مبتسمة أحلى ابتساماتها:

ـ لا داعي إلى أن تفرغي حقائبي.. لو سمحت هلا أريتني غرفتي، فسأقوم بذلك بنفسي.

قالت مدبرة المنزل بعدم انفعال: «بالتأكيد».

وتقدمتها نحو المنزل.

كانت بابيتي قد شاهدت ردهة المدخل. . إن الفخامة لخبالية، فالأرض من خشب موشى وهي مغطاة بسجاد شرقي مزخرف. وعلى الجدران أقمشة مطرزة يدوياً وفي السقف ثريا كبيرة تسحر العقول هي والمرآة القينيسية، لكن كان الدرج المعلق الذي يحتل الردهة المعجزة الأنيقة في القوة والخفة. . يحق لأورا بهذا الجو من الكبرياء، فكل ما في المنزل يحمل لمسة الحب والاعتناء.

وهذا يشمل غرفة النوم التي أرتها إياها. . غرفة واسعة يغلب عليها اللون المشمشي، فيها سرير ذو أربع قوائم مرتفعة، مغطى بستائر أغمق لوناً من باقي الغرفة، ومرآة أخرى منمقة. . أنارت ثريا مذهبة مدفأة من الرخام الأبيض، كان هناك زهور ورف من الكتب. . وطاولة زينة جميلة. الشيء الوحيد الذي بدا غير منسجم مع الأثاث كان حقيبة بابيتي.

قالت أورورا وهي تشير إلى باب في جدار بعيد.

ـ الحمام هناك عبر هذا الباب.

ـ وماذا هناك عبر الباب الثاني؟

ربما لم تسمعها مدبرة المنزل. . لأنها لم تحاول الرد. . ترددت بابيتي، ثم تقدمت إلى الباب تفتحه. . فوجدت هناك ما كان واضحاً أنه غرفة نوم كورد، التي هي توأم غرفتها.

بعد نظرة شاملة، أقفلت بابيتي الباب. . ووقفت تنظر إلى أطراف أصابعها التي كانت ترتعش. سرعان ما رفعت رأسها وابتسمت لمدبرة المنزل المنتظرة.

ـ أتعرفين. . أحب رؤية البحر من غرفتي إن كان هذا ممكناً، فهل يزعجك أن أغير الغرفة؟

خفّ توتر المرأة فجأة.

ـ لا. . لا إزعاج أبداً، هناك غرفة في غاية الجمال في الجهة

المقابلة من الممر.

كانت غرفة جميلة بالفعل ولكنها لم تكن كبيرة كالأخرى، فيها سرير نحاسي كبير قديم الطراز مغطى بالدانتيل الأبيض، أما الألوان الطاغية على الغرفة فالأخضر والأبيض. . لم تكن تنفتح على الشرفة ذات الأعمدة العريضة، ولكن من خلال النافذة العريضة بدا لها البحر عبر ستارة من الأشجار.

قالت بابيتي بأدب:

ـ جميلة. . سأفرغ حقيبتي الآن. . متى موعد الغداء؟

ـ منتصف النهار. . يبدأ الصباح باكراً هنا، لذا نتناول الفطور باكراً. . سأحمل إليك فطورك في الثامنة والنصف لأن كورد يخرج قبل الثامنة. أما العشاء ففي الساعة السابعة والنصف. . وينام الجميع عادة في الحادية عشرة.

ردت بحزم: «سأنزل لتناول الفطور لأنني معتادة على الاستيقاظ باكراً. . شكراً لأنك فكرت في راحتي».

الواضح أنها مرت بنوع معين من الاختبار. . مع أن المدبرة لم تفتح قلبها كلياً. عندما كانت تفرغ الحقيبة تساءلت عمن قرر وضعها في تلك الغرفة المجاورة لغرفة كورد. إن كانت الفكرة فكرة مدبرة المنزل، فيا لها من جريئة. . أملت بطريقة ما ألا تكون فكرة كورد.

لم تكن معتادة على مثل هذا الترف. ليس كورد بلاكيارد ثرياً فحسب بل هو فاحش الثراء. . انتقلت نظرتها من اللوحة المائية الألوان، الرائعة الجمال على الجدار إلى القصعة الخزفية المزخرفة. كانت تعتقد حتى الآن أن مثل هذا الثراء غير موجود إلا وراء البحار وصدمها أن تدرك أن في نيوزيلندا أشخاصاً يعيشون في مثل هذا الجمال والثراء.

لن يشكل هذا فرقاً لما تشعر به.. لأنها ترفض أن تصبح عشيقته.. وهذا قرار اتخذته من وجهة نظر دفاعية بحتة.. فكورد رجل في غاية الخطورة. ولكنها لم تستطع منع نفسها من التساؤل، بشيء من الغيرة المخجلة، عن عدد النساء اللواتي انتظرن في تلك الغرفة الجميلة أن يفتح الباب الفاصل بين الغرفتين.

جعلها الغضب الأعمى ترفع الرأس وهي تسير إلى باب جانبي حيث كان السبانيال منتظراً. قالت بمحبة:

ـ تعال أيها السخيف.

وابتسمت وهو يلحق بها إلى الأرجوحة.. لقد سبق أن اشترت مجموعة مختارة من القصص التي تنوي قراءتها.. لكنها لم تستطع التركيز.. ففي لحظات أطبق جفناها، ونامت.

أيقظتها زمجرة الكلب فسألت وهي تشعر بوطأة النعاس: «ما الخطب؟»

انطوى جسمها آلياً ليتلاءم مع حنايا الجسم الآخر الذي أحست أنها تستند إليه.

قال كورد: «عودي إلى النوم».

استطاعت أن تسمع ابتسامته في صوته، وفتحت عينيها على مضض وقالت بوقار أفسده التثاؤب:

ـ يمكنني السير.. أنزلني..

ـ أيمكنك ذلك حقاً؟

ووضعها أرضاً.. غمرت وجهها تثاؤبة أخرى فاستندت إليه شاكرة القوة التي أبقتها مستقيمة.. أحست بالراحة في الاعتماد عليه وفي الإحساس بقوته الداعمة.. ثم، حذرتها غريزتها بأن تصرفها خطأ، فاستقامت.

ـ يا إلهي، لماذا أشعر بهذا بعد النوم نهاراً.

ابتسم، وانحنى يضم قدها الصغير بين ذراعيه وكأنه يحميه.

ـ إنه التوازن الحياتي!

ـ ممكن جداً.

جذبت نفسها منه مبتسمة، ومررت يدها في شعرها الحريري، مطلقة العنان لتثاؤبة أخرى. وضع يده حول كتفيها:

ـ أملت أن أحملك إلى غرفتك بدون أن أوقظك. كنت نائمة كالأموات، ولكن الشمس كادت تصل إلى وجهك.

ـ أحد الأمور المهمة التي يتعلمها من يعملون في مضمار عملي هو الاستيقاظ بسرعة.. سأصعد لأغسل وجهي ثم أسرّح شعري.

مرت يده ببطء فوق شعرها ثم توقف ليديرها إلى ذراعيه، تراقصت ابتسامة على فمه وهو يقول بنعومة:

ـ عيناك خضراوان نقيتان. إنهما بلون بركة عميقة حول جزيرة مرجانية.. لست جميلة بالمعنى الكامل للكلمة يا طبيبتي الصغيرة ولكنني عندما أغمض عيني أرى وجهك مبتسماً لي فأرغب في ابتسامتك فقط.

ردت بأنفاس مقطوعة:

ـ لا شك أن فيك دماً إيرلندياً.. ألم يقبّل جدك أحجار قصر بلارني؟

أضاء الإعجاب والإثارة عينيه الغريبتين:

ـ لم أسأل جدي. فعائلتنا اسكتلندية، ربما كان في عروقنا لمسة من دم إيرلندي منذ زمن طويل.. يميل الرابط «السلتي» إلى السوداوية، ولكن بوجود عرق اسكندنافي، وإنكليزي، أعتقد أننا نستطيع تخفيف الكثير من الشاعرية المتوقدة من العرق السلتي.

أغمضت بابيتي عينيها واستسلمت لذراعيه تسند رأسها إلى صدره، تحس بروعة الجنة، إلى جانب مرارة الجحيم.. وحدث لها

ما حدث من قبل. لقد تغلبت النار المتوهجة والإثارة على عقلها.. تعانقا وكأنهما يتبادلان روحيهما، وكأنهما لا يريدان الافتراق أبداً، وكأن الحياة لا تحمل شيئاً لهما أكثر من هذا الاتحاد الجارف الذي لا يمكن بعده أن ينفصلا.

اخترقت الشمس البرتقالية جفني بابيتي المغمضين فتمازجت مع الحرارة الأخرى في أعماقها.. أحست وهو يضمها إليه بترقب عنيف جعلها تنسى كل شيء عدا ما تحس به.

همست:

ـ لا أفهم هذا.. كورد.. أنت تخيفني.

رفع رأسه ببطء.. وحلت نظرة ساخرة محل الشوق في عينيه.. ثم قال يبعدها عنه:

ـ إنه يدعى الرغبة.

لم يكن قادراً على إخفاء تأثره السريع.. في خديه احمرار شديد وفي جسده توتر وترقب، أما صوته فكان ينم عن السأم.

ترنحت بابيتي: «أعرف هذا».

ـ إذن.. ما الذي لا تفهمينه؟

ردت على الإهانة الموجودة في صوته، بأن وقفت مستقيمة، رافعة ذقنها بتحدٍ إليه:

ـ لا أفهم لماذا يجب أن أحس بما أشعر به الآن في الوقت الذي لا أظن فيه أنك تعجبني كثيراً.

اختفى السأم عن وجهه لتحل محله ابتسامة كانت تجدها في سرها لا تقاوم:

ـ كذابة.. فأنا أعجبك كثيراً.

ـ لكنني لا أعرفك.

ـ وما شأن هذا بهذا؟

ردت غاضبة من سخريته:

ـ أظن أن لهذا شأناً كبيراً.. ! سبق أن قلت لك إنني لا أقيم علاقة عابرة.

ـ وماذا عن علاقة جادة؟

كان يضحك عليها، فردت بحذر أقل من عادتها:

ـ لا علاقة جادة.

ران صمت غريب.. لم تتغير فيه تعابير وجهه. مع ذلك عرفت وراء القسمات القاسية التي لا تلين، عقلاً راجحاً يفكر بسرعة كبيرة ودقة للوصول إلى الاستنتاج الأوحد..

قال وهو يمسك بمرفقها ليمنعها من الابتعاد:

ـ رويدك لحظة.. ألم تقيمي علاقة قط بابيتي؟

لو أبدى اهتماماً أكثر لما استطاعت أن تجد الشجاعة لترد.. لكن تورد وجهها ولم تستطع أن تنظر إليه:

ـ لا، لم يحدث ذلك قط.

تسللت يده لتمسك معصمها:

ـ وهل من سبب خاص؟ أعرف أن السبب ليس كرهك العام للرجال.

ـ ولِمَ لا؟

اشتدت أصابعه على معصمها، ثم تركها.. بدا أنه فهم أن لا داعي له في طرح المزيد من الأسئلة.

قال: من الأفضل لنا الذهاب لتناول الغداء قبل أن تبدأ أورا بالصراخ.

رافقته إلى غرفة الطعام. كان الكلب نائماً تحت كرسيها فيما كانت ترتشف حساء «الافوكادو» البارد الذي تبعه قطع دجاج مطبوخ بصلصة شرقية من الزنجبيل الأخضر، وبصلصة الصويا وبحبوب

السمسم. قدمت أورا مع اللحم سلطة البرتقال والبصل، وتبولة لبنانية تحبها بابيتي كثيراً.

ولكن وجود كورد أثر فيها تأثير العقار الشديد القوة. غضت طرفها عنه ونظرت إلى طبقها.. مضت لحظات طويلة قبل أن تتمكن من وضع ما يكفي من ثقة في صوتها لتعلق على منزله، ورد عليها:

ـ عندما اشترى جدي المكان كان مزيناً «بالتارتان» وهو قماش مخطط بعدة ألوان.. أعجبه هكذا.. وظل على تلك الحال ولكن منذ عشر سنوات قررت إحدى عماتي أن تغيّر الديكور. وجدت أشياء كثيرة جيدة في «العلية» ولكنني أقسم أنها أفقدت كل متعامل بالأثريات صوابه، هنا وفي انكلترا، قبل أن ترضى.

ـ لكنها قامت بعمل رائع.

ـ وهي امرأة رائعة.. لقد تمسكت بأسنانها بالمنزل الذي تملكه وزوجها في «هنتر ڤالي».. إنه منزل رفيع الطراز. وهي في هذه اللحظات تقضي أوقاتاً رائعة في إعادة ديكور ڤيلا ڤيكتورية الطراز في مكان غير بعيد عن هنا، إنها أقوى امرأة عرفتها. قلبها خال من العاطفة.. ولكن ابنها يحبها كثيراً وكذلك زوجته.

ـ وهل هي فالوري بلاكيارد؟

ابتسم بمحبة: «أجل.. ابن عمتي محظوظ. لقد التقيت به، أليس كذلك؟»

ـ التقيت بهما.. مع أنها لم تكن مناسبة اجتماعية على أي حال.

ضحك: «لا.. فقد قال أركادي إن تلك التجربة كانت من أعظم التجارب عليه ولن تمر ڤالوري بمثلها مرة أخرى».

ـ سيتغلب على الذكرى..

اجتاحتها عن غير سابق إنذار إحدى موجات التعب التي كانت

تشعر بها من جراء الالتهاب الرئوي. اعتلت قطرات عرق خفيفة شفتها العليا وصدغيها.. ولا شك أنها اصفرت لأنه أصبح قربها قبل أن تتحرك.. كان صوته حاداً ملؤه القلق عندما سألها عما بها.

ـ آسفة.. ما زلت متعبة قليلاً.. سأكون على ما يرام..

ـ كورد..؟

رفعها عن الكرسي بسهولة، وتوجه بها إلى الباب، فقالت معترضة:

ـ أمن عادتك حمل النساء؟ سأكون على ما يرام بعد لحظة.

رعد صوته في صدره:

ـ يعجبني أن أحملك.. فلا تحرميني من الإحساس اللذيذ بحمايتك. هذه الأيام النساء قادرات.. ومن النادر أن نجد رجلاً يحصل على فرصة يشبع فيها رغبته في أن يكون قوياً.

ردت بسخرية كادت لا تكون ظاهرة:

ـ أنا واثقة من هذا.. لكني لم أشأ إزعاجك.

أحست بصدره يرتفع، لكن ضحكته لم تكن مسموعة، حينما نظرت إليه بدا أن ضحكته كانت موجهة لنفسه..

ورد عليها:

ـ أميل إلى الظن بأنك ستكونين خطيرة بغض النظر عن حجمك.

ـ خطيرة؟ أنا؟ ليتني كذلك. طالما أحببت أن أحيا حياة «المرأة الخطيرة».. وأعتقد أن لهذا فترات.

ـ أتشعرين بالسأم أحياناً؟

ابتسمت بكسل:

ـ ليس لدي الوقت لأسأم، فحياتي كطبيبة تضمن زوال السأم. أنا متعبة دائماً، ومشغولة، لذا لن يجد السأم فرصته إليّ.. على أي

حال ستضيع المرأة الخطيرة في طب الأطفال.

قال وهو يفتح باب غرفة نومها:

ـ قد تضطرين إلى تحريف مبادئك.. خبرتي بالنساء الضعيفات محدودة جداً. لكنني أتصور أن عليك أن تكوني أكثر انفتاحاً على الدنيا فيما لو كنت جادة بشأن مهنتك.

وضعها على السرير متجاهلاً الغطاء ثم استقام، وراح ينظر بعينين ملؤهما التسلية إلى الاحمرار الذي سببه تعليقه الأخير.

لم يكن لدى بابيتي للمرة الأولى كلمة تقولها.. فقد سمَّرها الحنان الغريب في عينيه، استلقت كالدمية على الغطاء، منتبهة لعطاس الكلب الهادىء الذي كان يدور عدة مرات حول قوائم السرير.

قال كورد: «نامي». وانحنى يلثم جبهتها برقة.

***

٤ ـ رجل وامرأة

لالتهاب الرئة تأثير على الجهاز العصبي.. فبسببه نامت هذا النوم كله. تثاءبت، ثم نهضت لتتجه إلى النافذة بغية مراقبة الأمواج الصغيرة التي تتكسر على الرمال الذهبية البيضاء.

من مكان قريب، تناهى إليها أصوات الأولاد. ابتسمت بابيتي تحاول معرفة مكان وجودهم. ما هي إلا لحظة حتى لمحتهم. إنهما صبيّان صغيران في السادسة من عمرهما يقطفان البراعم من شجيرة فوشيا، أحست بانقباض في حنجرتها.. إنها تحب الأولاد كثيراً..

كانا غارقين في لعبهما حتى دفعهما صوت أورورا إلى الالتفات إذ صاحت بهما:

ـ أخرجا! تعرفان أنه من غير المسموح لكما أن تتواجدا هنا.. لدى السيد بلاكيارد زائرة.. وهي نائمة الآن! اذهبا من هنا قبل أن توقظاها.

ركضا إلى حيث تقف أورورا وسألها أحدهما:

ـ ولماذا تنام في النهار؟ أهي طفلة؟

ـ لا.. إنها مريضة.. اذهبا الآن.

ـ أيمكن أن نأخذ الحلوى؟

ـ هل لنا أن نأخذ الحلوى؟

ارتفع المزيد من الضحك قبل أن يذهبا. ضحكت بابيتي

وفتحت خزانة الملابس لتأخذ منها فستاناً بلون التراب.

توجهت إلى المطبخ الذي هو غرفة واسعة، رائعة التجهيز، تكفي لإطعام حفلة راقصة.. كان الولدان قاعدين إلى المائدة يحتسيان عصير البرتقال ويأكلان البسكويت، ويتحدثان بلا انقطاع إلى أورورا التي كانت تقطع العجين.

عمَّ الصمت بسبب مجيء بابيتي المفاجيء. رفعت مدبرة المنزل حاجبين متسائلين.. ولكنها ردت على تحيتها بلطف، وعرفتها إلى الولدين، إنهما بارني وادي اللذان نظرا معاً إلى ضيفة السيد بلاكيارد بفضول.

سألتها أورا: «ماذا أقدم لك؟»

ـ أنت مشغولة، أريد كوب عصير برتقال، ولكن سأعده بنفسي.

نظرت مدبرة المنزل إلى يديها، ثم قالت:

ـ في البراد إبريق.. والأكواب في الخزانة.. بارني أرشد الآنسة نيكولاس إلى مكان الأكواب.

هبَّ بارني واقفاً ليدلها، ثم وقف ينظر إليها، وكأنه ينتظر أن يراها تنهار.. سأل: «هل أنت مريضة؟»

ـ كنت.. لكنني أتحسن.

هذا ما أرضاهما معاً، وتطوع إدي ليقول:

ـ لبارني طفلة شقيقة.. إنها تنام نهاراً.

شربت بابيتي قليلاً من العصير وابتسمت لهما:

ـ ينام الأطفال كثيراً.. أليس كذلك؟

شعرت بتوتر مدبرة المنزل، وتساءلت لماذا لا تتقبل وجودها ولكنها لم تجد حاجة للتساؤل عن مشاعر الولدين، فهي تعرف كيف تتعامل مع الأولاد.. تكفيها بضع دقائق لتصبح وإياهما أصدقاء.

انطلق لسانا الولدين بسرد قصص عن المدرسة، ومغامرات عن السباحة والقتال وعن الطائرة الورقية الضخمة التي يصنعها شقيق بارني الأكبر في العطلات، حين يعود من المدرسة الداخلية.

ضحكا كثيراً، وأجابا عن بعض الأسئلة وطرحا أسئلة كثيرة.

بعد فترة قالت لهما أورورا إن أهلهما سيقلقان عليهما.

ثم غسلت بابيتي الأكواب والصحون فيما كانت أورورا تضع العجين جانباً ليخمر..

قالت: عليك ألا تدعيهما يصبحان مصدر إزعاج.. إنهما معتادان على اللحاق بكل وافد جديد أينما حل.

ـ لا يهم أنا أحب الأولاد.

ـ إنك تجيدين التعامل معهم.. إدي الصغير عادة خجول جداً، ولا يمكن أن تستخرجي نظرة منه.

ابتسمت بابيتي: إنه لجزء من عملي أن أقنع الأولاد بالكلام.. إنها مهارة كأية مهارة أخرى.. هل يذهب كل الأولاد من هنا عند بلوغهم المرحلة التكميلية؟

ـ أجل، فالمدرسة هنا ابتدائية فقط.. معظمهم في مدارس داخلية في أوكلند وهم يأتون في نهاية كل أسبوع.. وهذا يعني خسارتهم وهم في الثانية عشرة من عمرهم.

ـ أعتقد أن هذا أحد مساوىء العيش في جنة.

أدركت بابيتي أنها تلقت تحذيراً.. فلا بد أن المرأة تؤمن أن كورد لا يقاوم أبداً، هذا إن كانت تفكر في أن بابيتي وبعد أربع وعشرين ساعة من التعرف إليه تفكر في الزواج!

قالت المرأة: «إنها إحدى المساوىء».

قررت بابيتي إيضاح موقفها:

ـ لا تزعجي نفسك بذكر أية مساوىء أخرى لأنني لن أكون هنا

أكثر من بضعة أسابيع . . وعندما أعود إلى أوكلند، لا أريد أن أفكر في أن في الجنة أفاعي . هل من شيء آخر أستطيع أن أفعله؟

ـ لا شكراً لك، ما كان عليك أن تفعلي شيئاً .

ـ آه! أتحبين أن يكون مطبخك لك وحدك؟ آسفة .

نظرت إليها أورورا نظرة تفكر قبل أن تفاجئها بابتسامة :

ـ أجل . . أحب أن يكون لي وحدي لئلا يرى أحد الأشياء الفظيعة التي تحدث فيه .

ـ كخفق الصلصة البيضاء بخفاقة البيض؟

ـ في كل مرة . . وكذلك تخثير المايونيز . . لكن البطاطا هي الأسوأ . أجد صعوبة في طهوها بدون أن أحرقها .

بعد ترسيخ نوع من العلاقة الودية تبادلتا الابتسام . نظرت بابيتي إلى الكلب الذي كان يشم الأرض حول قدميها :

ـ أتظنينه يريد شيئاً؟ ربما يريد الخروج للتنزه؟

نصحتها أورا : من الأفضل الانتظار حتى تتحسن صحته . . إنه بحاجة إلى طعام لا إلى التمرين .

قالت بحبور :

ـ حسناً . . سنذهب لنجد مقعداً، ونتطلع شوقاً للعشاء . . أنت طاهية ممتازة سيدة بنجامين .

ـ ناديني أورا . . بهذا ينادونني . . وإن أردت إقناعي بأنك تعنين ذلك الاطراء فعليك أن تأكلي أكثر مما تناولته وقت الغداء .

ـ وما الفائدة من كثرة الطعام؟

ـ جسمك صغير جداً . . والأفضل أن تأكلي جيداً وقت العشاء . سيكون كورد جاهزاً في السادسة والنصف تقريباً .

ـ وماذا عن اللباس؟

ـ سيكون أي شيء ترتدينه جيداً . . إنه لا يحب الرسميات .

هزت بابيتي رأسها . . كان فستانها من النوع الكلاسيكي الذي يتناسب مع كافة الأوقات . ولكن للعشاء ستنتعل حذاء عالي الكعبين وتتبرج .

قالت : لدي رسائل أكتبها . . أظن أنني سأفعل هذا في ذلك البيت الصيفي المكشوف الذي لمحته من نافذة غرفتي .

هكذا كتبت لوالدها، تقص عليه خبر تبنيها لبراوني . . سيجد هذا مسلياً، شيء يقصه على أفراد العائلة . . فيما كان النحل يمتص رحيق الزنابق والورود المحيطة بالمبنى، كتبت بضع كلمات على بطاقة بريدية لزوجين يعيشان في الشقة الملاصقة لها، وشرحت القصة بطريقة مسلية لعرابتها في كندا .

عندما أنهت رسالتها جلست لحظة تنظر إلى ما حولها . كانت فترة العصر فترة حزينة لكنها كانت في جو «موتواروها» شيئاً مختلفاً .

سمعت أصواتاً ووقع حوافر جياد على الطريق . في أحد المنازل البعيدة، كان أحدهم يتدرب على عزف البيانو بدقة ومهارة . . صاح النورس البحري وهو يطير فوق الشاطىء، ومن مكان غير بعيد صدح طائر سمّان وهو يمر بسرعة فوق أديم الأرض . امتزجت أصوات الموج وطنين النحل مع حفيف الريح .

بشكل غريب، أحست بابيتي برطوبة على وجنتيها . . إنها عادة غير مبالة للدموع . . لذا لا شك أن السبب جزء من الضعف المترسب فيها من جراء مرضها . جلست ساكنة، مسمرة، تتمسك بكل تفصيل صغير، محاولة بيأس تقريباً أن تطبع هذه التفاصيل من حولها في ذاكرتها . . فقريباً ترحل عن هذا المكان وتتركه وراءها .

حثّها جزء صغير مرير من عقلها على محاولة تصور وجه زوجة كورد . المرأة الصهباء الجميلة التي أحست بأنها مسجونة في

الجزيرة.. في أية غرفة احتجزها قبل اندفاعها الهستيري نحو الحرية.. والموت؟ هل هي الغرفة الكبيرة المخارية اللون حيث ينام كورد؟ أتراه غيّر غرفته بعد موتها؟

ارتدّ رأسها ببطء لتتمكن من رؤية الشرفة العريضة التي تلتف حول المنزل. وقررت.. لا، لم يغير غرفته.. إذ لم يكن هناك أثر للحب في ذلك الوجه الخشن وهو يتكلم عنها.. بل نوع من الندم المرير المثقل بطعم السخرية الذي صدم بابيتي.

فتشت عيناها عن واجهة المنزل.. ووجدتا نوافذ غرفته.. كانت مفتوحة، عندما تكيّف بصرها مع الظلال خلف العواميد أدركت أن هناك من يراقبها من الداخل.. كاد لا يكون مرئياً لولا لمعان شعره الأشقر القمحي. لكن، بعد لحظة أو لحظتين، تمكنت من تحديد خطوط جسده الذي ضخمه الظلام حتى بدا مخيفاً.

اقشعر جسمها.. ولم تستطع الحراك أو التنفس، أو رفع يدها بتحية عفوية. كان ينتظرها على الأرجح.. تحرك براوني ونبح بشكل غريب، وارتفع رأسه لأنه شعر بتوترها.. كان الأمر وكأنها علقت في غلاف زمني، محتجزة لا إرادياً في ركود.

ثم اختفى، وكأنه لم يكن واقفاً هناك، وألمتها رئتاها في جهدها للتنفس، وأخذت ترتجف متوترة بشكل أخرق بسبب ردة فعلها. نهضت وجمعت الرسائل، وعادت إلى المنزل. وفي نيتها التوجه إلى غرفتها قبل أن يخرج من غرفته ليكون لديها فرصة تنفس.

لكنها لم تنجح.. عندما دخلت من الباب، كان في طريقه إلى الدرج. بدا غامر الأناقة والسحر في قميص إيطالي حريري، فوق سروال يظهر قوة ساقيه.. لم يكن ما يرتديه مائلاً للأزياء المعروفة ولكن ما كان يرتديه كان مفصلاً بشكل ممتاز.

قال: «لو تركت الرسائل على تلك الصينية لوصلت إلى العبّارة

البحرية صباح الغد».

ـ شكراً لك.

كان حلقها جافاً وهذا كل ما استطاعت أن تخرجه من كلمات.

قال بصوت منخفض: «تبدين فاتنة».

انتفضت ولكنها واجهت نظرة الإعجاب في عينيه الكهرمانيتين بجفاء:

ـ وأنت كذلك. سأصعد إلى غرفتي لأتبرج.

ـ لا داعي.. تعالي نحتسي شراباً.

حاولت لبرهة المقاومة ولكنها بعد هزة كتف استسلمت وتركته يقودها إلى غرفة سقفها شبيه بخيمة وأثاثها من القصب الأبيض وفيها نباتات مثيرة للاهتمام. كانت النوافذ والأبواب مفتوحة على الشرفة المسقوفة حيث الياسمين البري ومعترشات أخرى أزهارها حمراء قانية بشكل الأبواق. سألها بعدما أجلسها في كرسي مفروش بالأزرق:

ـ ماذا تشربين؟

ـ عصير فاكهة أرجوك.

حمل كورد كُوباً مماثلاً وجلس يسليها.. كان مضيفاً رائعاً وكليماً ومفكراً.. واكتشفا أنهما يهتمان بأشياء مشتركة كثيرة بدءاً من موسيقى «هاندل» وصولاً إلى الزراعة الاستنباتية وإلى أفضل الطرق لمعالجة الصدأ في السيارات.. ومن هنا تطرقا إلى مستقبل البلاد.. كان كورد يذكر رأيه في الإنتاجات الأساسية حين ظهرت أورا.

ـ آسفة كورد.. السيد ديكسون على الهاتف.

اعتذر، ثم عاد بعد دقائق عاقد الحاجبين.

ـ إنه صديق. يريد أن يجلب على يخته من أوكلند جماعة

ليحتفي بهم.

أحست بابيتي بالارتباك.

ـ أعود إلى الفندق إذن.

جلس قربها وهو ما يزال عابساً:

ـ لا تكوني حمقاء.

وضع يدها في يـده وراح يحرك إبهامه عن غير وعي على معصمها الهش وعلى وجهه تعابير غامضة:

ـ أخشى إن رأوك هنا أن يسيئوا الظن بك، فأنا لا أقضي أوقاتي وحيداً عادة.

هذا مؤكد. إن رجلاً مفعماً بالحيوية والرجولة لن يفتقر إلى «رفقة أبداً.. أدركت أنها لولا رجاحة عقلها وعنادها ضد الغرق في مشاعر لاجدوى منها لاعترفت أنها تحس بالغيرة.

ارتفع ذقنها قليلاً، ولاقت نظرته الصريحة:

ـ إذن.. ماذا هناك لتقلق عليه؟

ـ حقاً..؟ أشعر بدافع إلى حمايتك ولكن الواضح أن ذاك الشعور غير ضروري أبداً. وإن حسبوك عشيقتي ابتعدوا عنك وهذا في صالحي.

قالت بسخرية مماثلة:

ـ آه! واثقة أنني سأجد صحبة ممتازة.

ـ يمنعني التواضع والتحفظ من الرد على هذا.

التوت يدها في يده، فتركها، لكن ليس قبل أن يرفع معصمها إلى شفتيه، وعيناه تلمعان برضى الصياد بسبب ردة فعلها العفوية.

أفسد حديثهما الأمسية. إذ بدا كورد سئماً مهذباً يحاول ما في وسعه رعايتها وهذا ما جعلها تصر على أسنانها غيظاً. لكنها تحملت تصرفه ذاك بدون ردة فعل ظاهرية.. فقد تأثرت برغبته في

حمايتها.. وندمت لأن روحها المستقلة منعتها أن تقبل بتلك الرغبة.

عرفت أنها أخطأت.. لم يكن في تصرفه ما يعبر عن غضبه.. فقد أصابته بطريقة ما في وتر حساس.. وهو الآن يخفي مشاعره خلف قناع من التعجرف فيه شيء من الضعف.

سألها بأدب: «هل أضجرتك؟»

منحته ابتسامة بطيئة فاتنة، وقالت بعذوبة وسخرية:

ـ أبداً.. لقد ازددت علماً بمعرفتي مدى قدرتك على الصبر.

برق اللون الكهرماني في عينيه كالذهب.. ثم تحول الغضب إلى احترام فابتسم:

ـ قد تكونين جيدة بالنسبة لي وأنا آسف لأنني لم أكن لبقاً معك.

كان عليها أن تترك المسألة عند هذا الحد.. فهل يهمها ما يفكر فيه؟ ولكنها وجدت نفسها تواقة للشرح:

ـ وكنت أنا غير لبقة أيضاً.. أنا أسأم الناس أحياناً وليس فقط الرجال، لأنهم يظنونني بسبب صغر حجمي نصف موجودة. أنا قادرة على التوضيح أمام الجميع أنني لست عشيقتك!

ـ أصدقك.. إنما أخشى أن تصعب سمعتي مهمتك. أعترف بالذنب لأنني حكمت عليك حسب حجمك، لقد ترعرعت على الاعتقاد بأن النساء بحاجة إلى رعاية وإرشاد لأنهن الجنس الضعيف.

ردت على كلماته الممازحة والخبيثة في آن بابتسامة أخبث منها.

ـ ضعيف من أية جهة؟ فكرياً؟ قوة التحمل؟ القدرة على تحمل الألم؟

ضحك معترفاً بإصابتها صلب الموضوع. شدها بسهولة إلى ذراعيه، وقال برقة:

ـ ليس أي واحد مما ذكرت.. في هذه اللحظة.. القوة المتوحشة وحدها هي المهمة.

ـ القوة المتوحشة وحدها مهمة حيث هي مهمة فقط.

توقعت أن يعانقها فأغمضت عينيها ترقباً.. ولكن رغم ضربات قلبه الراعدة على كتفها، لم يحدث شيء. فتحت عينيها مجدداً لتركز بصرها على وجهه.. كان ينظر إلى وجهها وكأنه مسحور بثناياه الناعمة.. عندما ارتفعت أهدابه ظهرت نظرة فارغة تخلو من أية عاطفة.

أحست ببرد شديد بسبب معرفتها مدى قدرته على ضبط النفس التي يحتاج إليها لمثل هذا التراجع الكامل.

قالت عامدة:

ـ على أي حال.. ظننتك تعرف أن تفوق القوة يشبه تفوق الحجم.

ضحك برقة وسخرية، وتركها ليختار شريطاً مسجلاً يريد وضعه في جهاز رفيع الصنع. عندما صدحت أولى النغمات قال:

ـ أعرف بكل تأكيد.. وقد يكون لهذا فائدة.. أبدو وكأنني ملاكم محترف مع أنني مجرد مزارع، وقد أبدو فلاحاً غبياً حين تدعو الحاجة.

ـ أراهن أن الإنسان لا يرتكب الخطأ ذاته مرتين.

ـ نادراً جداً، ولكن بعضهم يبقى أسير أفكار خاطئة، قد تدوم فترة.

ما من امرأة غبية قد تنخدع بأي ادعاء بسبب غباء وبلادة.. غرائز الأنثى مشحوذة جيداً، وستكون امرأة شديدة الغباء من لا

تلاحظ هالة الرجولة التي تحيط به.

أشارت إلى جهاز التسجيل، تشير إلى المغني الذي يصدح صوته:

ـ أحب هذا.. أليس كاملاً؟

قبل تغيير الموضوع برضى، مر ما تبقى من الأمسية بصفاء مذهل.

عندما كانت تستعد للنوم فكرت في ذلك الصفاء.. ليس كورد من الأشخاص المثيرين للتوتر أو ممن يعتقدون أن على كل لحظة أن تكون مشغولة بالحديث حتى التافه منه.. كان الصمت أثناء إصغائهما إلى الموسيقى مريحاً، وكأنهما صديقان قديمان لا رجلاً وامرأة يعي كل منهما وجود الثاني بقوة.

اعتقدت أنها ستبقى مستيقظة ولكنها لم تجد نفسها إلا وهي تفتح عينيها على صباح جميل مشرق.

كان الوقت باكراً إنما لأول مرة منذ مرضها تحسّ بتدفق الطاقة وبنشاط يشبه اشعاع الصباح. نزلت الدرج ثم خرجت إلى حيث النهار الذهبي، وهناك ركزت بصرها على كورد الذي لم ينتبه إليها فوراً. على رجل مثله ألا يمتلك مثل هذه الصفات المميزة والرشاقة، فتناسق جسمه، وجاذبيته المشعة تجتمع جميعها لتبهج العين.

لم يصدر عنها أي صوت، ولكنه شعر بوجودها بسرعة تقريباً.. فوقف وراحت عيناه البراقتان تداعبان وجهها الصغير بسعادة وسخرية.

قال وكأنما يردد صدى أفكارها عنه: «من النادر في شخص صغير الحجم مثلك أن نجد مثل هذا التناسق الكامل! إن قصار القامة مثلك يحتاجون إلى ما لا يقل عن أربعة إنشات من الطول ولكنك

مثالية».

حرق لون أحمر بشرتها:

ـ لكنني أحب أن أحصل على هذه الإنشات الأربعة على أي حال.. شكراً لك، وأستطيع أن أبادلك الاطراء.

ضحك ودس الكرسي وراءها لتجلس.

ـ شكراً لك.. ليتني قادر على إعطائك هذه الإنشات.

ـ صحيح؟

ـ لا.. لأنني اعتدت على طولي.. ولكنني أتمنى في بعض المناسبات ألا يجد الناس حجمي مخيفاً.

قالت تمازحه: «إذن يجب أن تشكر الجنيات التي أعطتك الرشاقة إضافة إلى الطول».

ذهلت لأن اللون الأحمر لامس أعلى وجنتيه.. ولكنه سرعان ما أخفى ارتباكه الآني بالهجوم.. وارتفع الضحك من أعماق عينيه وهو يرد:

ـ ألا يجب على النساء القصيرات أن يحذرن من الحمل؟ لو حملت طفلي مثلاً؟

أذابت حرارة غريبة بابيتي، ولم تستطع إلا فتح منديلها إذ ارتجفت يداها بشدة حتى اضطرت إلى وضعهما تحت الطاولة..

ـ أجل.. هذا ممكن، النساء القصيرات في وضع لا يحسدن عليه بالنسبة للحمل.. وهذا على الأرجح ما يفسر وجود القليلات منا.

ـ إذن، لو حملت طفلي لتعرضت للخطر؟

أحست مرة أخرى برقة مريرة، وكأن دمها يغلي.

ـ كان ذلك ممكناً منذ مئة سنة، أما في هذه الأيام فبالإمكان معالجة أمر كهذا بيسر.

قال بهدوء: «بجراحة قيصرية؟ أيزعجك أمر الجراحة القيصرية؟»

خاطرت بنظرة نحوه، فرأت عينيه منصبتين عليها بقسوة والابتسامة على فمه تكاد تكون غاضبة.

أجابت: «لا.. فهذا من غير المحتمل أن يحدث في وقت قريب لأنني لم ألتق بالرجل المستعد للقبول بزوجة مثلي».

ـ لماذا؟

ـ لأنني أنوي أن أكون مستشارة طب الأطفال، وهذا يعني أنني مضطرة للعمل كطبيبة أطفال مقيمة مدة خمس سنوات، بعد ذلك أريد السفر مدة سنتين على الأقل عبر البحار لاكتساب الخبرة.

ارتفع حاجباه: «لا يبدو أن الزواج في مفكرتك القريبة.. لقد خططت لكل شيء بدقة».

ـ هذا إن اجتزت الامتحان بنجاح.

ـ لن يقف في دربك شيء؟ لا حب أو زواج غير مناسب؟

كان عصير البرتقال حلواً جداً، فأعادت الكأس إلى الطاولة وقالت بشيء من الحدة:

ـ بالضبط.. لقد عملت كعبدة سنوات.. تخليت عن أمور تعتبرها معظم النساء من المسلمات، لأنني كنت أعرف هدفي.. لا أريد لأي شيء أن يقف في طريقي.. فهل هذا عجيب؟ هل تتخلى عن هذا المكان من أجل الحب؟ أو من أجل زواج غير مناسب؟

شد شيء بشع قسمات وجهه.. فقالت مذهولة: يا إلهي!

قال بهدوء:

ـ لا.. فأنا أرفض السماح لزوجة غير مناسبة بالضغط عليّ لأتخلى عن «موتواروها».. لقد ماتت بسبب العناد.. وأنا أستطيع أن أفهم وأعجب بتصميمك. أعتقد أن ما يدهشني أن هناك في مثل

هذا القد الصغير طموحاً كبيراً.

جعلتها سخرية كلماته تضحك.. ثم قالت بحزن:

ـ أنت متعصب شوفيني، صعب المراس.

ـ هذا ما أخشاه.

مد يده إليها، فترددت لحظة ولكنها عادت فوضعت يدها بيده وراحت تراقب أصابعها تختفي في قبضته.. أخفى جفناه شبه المغمضين مشاعره. ارتجفت أصابعها وعضت شفتها لأن ارتعاشة بدأت تجتاح أعصابها.

قال بوقاحة ودفء:

ـ أود لو أغير رأيك بشأن علاقة حب.

أرسلت له نظرة مباشرة بحاجبين معقودين لإخفاء الارتجاف في جسدها.. قالت بحزم: «لن أتمسك بك بأسناني».

ـ خائفة.. يا قلبي؟

ردت على سخريته بنظرة نارية، وردت ببساطة:

ـ أجل.. فلست بحاجة إلى تعقيدات في حياتي.. فهي تعجبني هكذا.

ـ لماذا بابيتي.. أنت جبانة؟

ضحكت:

ـ أجل، وأنا عنيدة أيضاً، لذا لن تتمكن من إقناعي أو إجباري.

ـ ما رأيك لو توددت إليك؟

اخترق صوته المغري تفكيرها كمخمل دافىء، فاتن، وخطير.. ولكنها سرعان ما انتبهت. بدا لهاأنها رمت في وجهه تحدياً.. وأن هذا أكبر خطأ ارتكبته.. يبدو أن عائلة بلاكيارد يعيشون على التحدي.

قالت بسرعة: «لم أقصد التحدي.. لا أستطيع التورط معك

كورد».

قال بأدب، وعيناه تضحكان كشظايا الذهب:

ـ لقد خاب أملي!

ـ ألا تصدقني؟ أنا لم أعتبرك مغروراً.

ـ أصدقك.. لكنني أتساءل عما إذا كان عليّ أن أهتم..

ـ أيها المتعجرف.. قطعاً أنت متعجرف! يجب أن تقبل واقع عدم رغبتي في إقامة علاقة معك!

ضحك برضى شيطاني، ومال على الطاولة ثم همس بتمتمة مثيرة:

ـ مع أننا نعرف جيداً أن بالإمكان إغواءك.

أخفضت جفنيها لتخفي المشاعر التي ومضت فيهما:

ـ ربما.. هاك.. هل يرضي هذا غرورك؟

مسح الزبدة على قطعة خبز وأجاب:

ـ في الوقت الحاضر.. طبعاً. فأنا لا أعد.

ـ أوه!

وضحكت، فأصبح وجهها فجأة أكثر من شاب.. إنه يملك الكثير من السحر عندما يختار أن يستخدمه، الشيطان! وسيكون من السهل عليه النسيان. وهو يمتلك إضافة إلى سحره المثير مزايا خطيرة كثيرة.

لا بد أن شيئاً من أفكارها ظهر على تعابيرها، فقد قال:

ـ على أي حال، أعدك بأن أضبط نفسي ما وسعي إلى ذلك سبيلاً.

ابتسمت لكلامه. صدت بحزم تصوراتها ونحتها بعيداً.. ثم قالت لتبعد الحديث عن طريق الخطر:

ـ يطمئنني قولك كثيراً.. متى يصل أصدقاؤك؟

ـ سيكونون هنا وقت الغداء.

هزت رأسها وقضمت قطعة توست ورمت القطعة إلى الأرض لبلتقطها براوني.

قال كورد بحزم: من أجلك أنت.. لا تطعميه وأنت على مائدة الطعام.. إذ سيصبح مزعجاً لأنه لن يكف عن المطالبة بالطعام كلما جلست إلى المائدة.

أبقت عينيها مركزتين على قهوتها، ثم قالت متنهدة:

ـ أشكر الله لأنني غير مضطرة إلى العيش في عالم خال من القهوة، أو الشاي. كم شخصاً سيصل وماذا سأرتدي للغداء؟

ـ ستة أشخاص.. إن ما ترتدينه الآن رائع.. تبدين مثيرة وحلوة. يخت سايمون غير كبير.. هل أنت متوترة لأنك تتوقعين ملاقاة بعض أصدقائي؟

ـ لا، ولماذا أتوتر؟

ـ حقاً.. لماذا؟

بعد الفطور صحبها معه في جولة على المجمع الذي هو قلب المزرعة العامل. استمتعت بابيتي كثيراً وأسعدتها رائحة المزرعة والأصوات ومنظر الاخضرار.. ولكنها لم تستطع أن تنسى ذلك السؤال الذي بدا لها بريئاً.. فقد سأله وكأنه يريد منها أن تجد هذا اللقاء مع أصدقائه مهماً إلى درجة بعث التوتر فيها.

عندما عادا إلى المنزل، كان الوقت يقارب منتصف النهار.. لم يكن لديها وقت إلا للاستحمام ولارتداء فستانها الصيفي، قبل أن يتعالى صوت زمور بحري، يدل على وصول اليخت.

***

٥ ـ جنية في أرض القلوب

كان «الهاوراكي» مركباً شراعياً، أبيض وأزرق بخطوط قوية رشيقة.. وقف كورد وبابيتي على الرصيف يراقبان اليخت الجميل وهو يدخل بمهارة من المضيق إلى الخليج. كان شراعه مفتوحاً في البداية، ثم أنزل الشراع حيث تابع المسير بواسطة المحرك.

قال كورد معلقاً: «إنه مركب يفخر به سايمون... طالما أخرجه في أجواء عاصفة لا يتجرأ فيها أحد على تخطي الشاطىء».

إن كانت خبرته في الرسو مثالاً، فإن سايمون ديكسون ملاح ماهر. بعد بضع دقائق اكتشفت بابيتي أنه رجل لطيف كذلك، هو وزوجته لي.. ولكن الرجل الذي كان إلى جانبه هو الذي لفت نظر بابيتي.. فقد كان أجمل رجل رأته في حياتها.

قال أركادي بلاكيارد مبتسماً لبابيتي:

ـ سبق أن التقينا.

مررت زوجته ابنها لكورد وضحكت وهي تمد يدها لبابيتي:

ـ ما أروع أن أراك مرة أخرى.

رأت من ورائها امرأة رائعة الترتيب تنظر إلى بابيتي من رأسها إلى أخمص قدميها باحتقار.. حسناً، لقد حذرها كورد منها، إن اسمها كلود ميللر، وما كان على بابيتي غير مراقبة تحيتها لكورد لتفهم لماذا لم ترَ في عيني المرأة السوداوين الكبيرتين ملامح ود

تجاهها.

كـان على وجه ڤالوري بلاكيارد تعب أما زوجها الرائع فكان يبتسم.. ولكن كلود ميللر لم تكن واضحة في تصرفاتها، فمع أنها قبلت كورد بحرارة، إلا أنها لم تحاول الالتصاق به. وبعد البرود الأولي الذي رأته منها بابيتي أصبحت فاتنة معها، ولكن عند انطلاقهم نحو المنزل، أحست بابيتي بنظرة المرأة إليها، خاصة بعدما وضع كورد ذراعه بعفوية على كتفيها، لمساعدتها في ارتقاء مكان منحدر في الطريق.. كانت كلود ميللر تتحدث مع العضو السادس في المجموعة وهو رجل متوسط العمر، لطيف، ولكنها لم تكن تعيره اهتماماً كاملاً.

تقدمت ڤالوري لتربت على رأس براوني:

ـ لديك كلب جديد كورد؟

ـ إنه ليس كلبي.

وأخبرهم بطريقة ساخرة ما حدث، ولم يخف تمتعه بالوضع.

بدا الجميع وكأنهم لا يصدقونه إذ كانوا ينظرون إلى كورد بتعابير ملؤها الشك. ثم نظروا إلى بابيتي ومنها إلى براوني الذي يتبعها كظلها ملوحاً بسعادة في حركة متناغمة مع أذنيه.

ضحكت ڤالوري فعلمت بابيتي لماذا أحبها أركادي.

ـ وهكذا، اجتاحت الجميلة والوحش القصر المنيع.. حذار كورد.. فللقصص الخرافية قدرة على الحدوث!

قالت كلود ميللر برقة، وعيناها لا تبارحان وجه بابيتي:

ـ خاصة قصة «ساندريلا».

قال سايمون ديكسون شيئاً بصوت مرتفع، وجرى حديث مشترك، رأت بابيتي خلاله ڤالوري ترسل نظرة حب إلى زوجها الصامت ولم يقل كورد هو أيضاً شيئاً.. رأت بابيتي تعابير مماثلة

على وجهي الرجلين.. ثم انخفض جفناه ليخفيا عينيه الصافيتين الباردتين كحجر الصوان. سرت قشعريرة في جسمها ولكنه ما لبث أن أشاح نظرته عنها ليصبها على نظرة اركادي الساخطة.. وأحست بشيء من القلق.

إما أن كلود ميللر غبية لتخاف وإمَّا أنها أكثر شجاعة من معظم الناس. أحست بابيتي بأنها هنا في مكان لا تنتمي إليه. فهنا السحر يعني «المال»، فكرت بابيتي ساخرة.. تعرف أنها مخطئة. إن هؤلاء الناس أكبر من الحياة نفسها، النسوة أنيقات حتى في ملابسهن غير الرسمية. والرجال ذوو سلطة واضحة. كانوا يتكلمون بيسر ويتشاركون نكات خاصة بهم، ويعرفون بعضهم بعضاً جيداً لأنهم كانوا في المدارس نفسها باستثناء ڤالوري بلاكيارد.. وهي هنا بينهم، لأن اركادي وقع في حبها.

كانت بابيتي الدخيلة بينهم.. وها هي غارقة بقوة في الشفقة على النفس.

شعرت بأنها كانت تحت المراقبة. كان كورد يراقبها بعينين خاليتين من أية عاطفة، وكأنها تشكل مشكلة له.. ونعثرت.. فاشتد ساعده على كتفيها، وسألها من بين أسنانه:

ـ متعبة؟

ـ متوترة فقط.

أصبح التساؤل ابتسامة، فأحست بابيتي بفتنته تغلفها وتدفئها.

قال: سنتناول الطعام في وقت متأخر عن العادة، في الواحدة.. لذا، لماذا لا تصعدين إلى غرفتك لتستريحي قليلاً؟

ـ أظنه اقتراحاً عظيماً لأنني أشعر بالإرهاق قليلاً.

ـ بل تبدين لذيذة..

وابتسمت على مزحته. ولكنها اضطرت للانتظار إلى ما بعد

الغداء لتصعد إلى غرفتها وبراوني يتبعها كظلها . . توقعت الاستلقاء في الفراش ساعة أو ساعتين، ولكنها نامت نوماً عميقاً لم تستيقظ منه إلا على قرع خفيف على الباب.

قالت ڤالوري التي بدت قلقة:

ـ آسفة . . لكن الساعة تجاوزت الخامسة، وكورد بدأ يقلق . . لذا جئت أتفقدك.

أخفت بابيتي تثاؤبة عريضة.

ـ ادخلي . . يا إلهي، سأكون سعيدة يوم أستطيع قضاء يوم كامل وأنا واقفة على قدمي.

ـ قال كورد إنك أصبت بالتهاب الرئتين . . أيتها المسكينة . . لا شك أنك عانيت كثيراً.

ـ كنت متعبة في البدء، ولكنني غادرت الفراش باكراً.

ـ أرى هذا. أنتم الأطباء في حالة شديدة من الإرهاق دائماً.

جلست ڤالوري على كرسي، تمد يدها إلى براوني.

ـ لقد اخترت أمثل مكان للنقاهة.

تبادلت المرأتان الضحك أما براوني فانتقل لينام مجدداً أمام قدمي بابيتي. قالت ڤالوري: «حركة مؤثرة جداً».

هزت بابيتي رأسها:

ـ كان عليّ اصطحابه معي إلى البيت . .

ـ بما أنني أعرف شقيق زوجي معرفة جيدة فلا أتصوّر أن لك رأياً بالموضوع. فآل بلاكيارد يميلون إلى الاستبداد . . إنهم متسلطون حتى وهم في مهدهم . . أواثقة أنه لم يخطفك؟

ضحكت بابيتي واتجهت إلى المرآة ترتب شعرها:

ـ لا . . كل ما قام به هو جعل إقامتي هنا شيئاً منطقياً لا مفر منه!

ـ إنه تصرف آل بلاكيارد المثالي . . التعجرف مولود معهم . . ما

رأيك بالجيل التالي منهم؟

ـ أفضل ما في العنقود حتى الآن . . وأنا فخورة لأنه كان لي يد في خروجه إلى الحياة. أهو متعجرف أيضاً؟

ابتسمت ڤالوري: «أشعر بأنه كذلك . . فهو يطلب الطعام بتعال وطريقته هذه تذكر حماتي باركادي عندما كان في مثل عمره».

كورد على حق . . فبابيتي أعجبت كثيراً بڤالوري، وأعجبها اركادي كذلك . . في تلك الليلة، ارتدت أفضل فستان لديها، فستان حريري صغير يماثل لونه لون اخضرار عينيها، أخذت بابيتي تراقب كورد وضيوفه، وفكرت ساخرة أنها تستطيع أن تتعلم الإعجاب بهم جميعاً باستثناء ڤالوري ميللر . . المتعجرفة جداً.

همس لها كورد بعد بضع دقائق:

ـ تناسبك هذه النظرة الحالمة . . ولو شاهدك رافاييل لتمنى أن يرسمك.

ابتسمت وعيناها عميقتان غامضتان.

ـ كان فنانو تلك الأيام يحبون النساء المديدات القامة.

ـ هذه غلطتهم . . تعالي وأخبريني ماذا أقدّم لك من عصير.

فيما هي واقفة هناك طائعة، لمحت نظرة كلود، وقرأت فيها الازدراء الغاضب الذي أشعل غضبها، فأسندت رأسها لحظات إلى ذراع كورد بطريقة مثيرة حميمة . . ثم قالت بهدوء:

ـ لا أظن أن الآنسة ميللر تحبني، فهل أخرجها من بؤسها وأخبرها بأنني لا أحبك؟

ـ ولماذا؟ إنها تقضي وقتاً رائعاً وهي تتخيل أسوأ الأمور. تهوى كلود الدراما . . كما أنها لن تصدقك . . فهي لا تثق ببنات جنسها.

ارتدت عينا بابيتي إليه:

ـ وهل تعتبرك رجلاً لا يقاوم أم رجلاً لا يمكن إشباعه؟

ـ كانت موضع ثقة آنا.. زوجتي.. لو ذهبنا إلى المسرح معاً في ذاك الوقت لقامتا بدور مزدوج.

تحول وجهه المنقوش بدقة إلى قناع مرير وذلك عندما اقتربت كلود منهما، بدت مثالاً للفتنة وراحت تتحدث إلى بابيتي، لكن عينيها ظلتا ترتفعان إلى كورد، وكأنما لتحكم على ردة فعله. ابتسمت برشاقة محسوبة، وقالت:

ـ أخبرتنا ڤالوري أنك تعملين في مستشفى.. إنها وظيفة رهيبة بكل تأكيد.. مع كل الأدوية والمعدات الأخرى.. لا شك أنك بارعة جداً.

أبدت بابيتي أسنانها البيضاء الرائعة: بل ذكية.

لم تكن المرأة الأكبر سناً معتادة على مثل هذه الصراحة.. فنظرت إلى بابيتي مصدومة ومرتبكة، وقالت بوهن:

ـ أمر لطيف.

ثم استعادت رباطة جأشها فوجهت ابتسامة إلى كورد:

ـ من المستحيل تقريباً أخذها على محمل الجد. أليس كذلك؟ إنها صغيرة جداً لتكون طبيبة.. هي أشبه بالدمية!

بدأ كورد ينظر إلى بابيتي التي كانت تغلي سخطاً، من الواضح أنه يستمتع بالموقف، فبعدما انتهى من تقويمه الشامل لم تكن بابيتي وحدها القلقة:

ـ هي لا تشبه الدمية أبداً.. إنها أشبه بطفلة من الجن، فهي تبدو حقيقية ولكنها بعيدة المنال، وكأنها في بعد زمني مختلف.

قالت بابيتي تحاول المزاح:

ـ قد تُحدث الجنيات تغييرات.. إنما على حساب أنفسهن.. إذ تفقدن سحرهن.. وما هي الجنية بلا سحر؟

هز رأسه: «بمقدور البشر العيش في أرض الخيال والجن،

ولكنهم يفقدون أرواحهم».

فجأة انتهى المزح إذ تدخلت كلود مقاطعة الصمت المتوتر بجفاء:

ـ أمر غريب! هل تتحدثان دوماً عن الجنيات بهذه الطريقة؟

ابتسم كورد ابتسامة غير لطيفة: «متى شعرت برغبة في ذلك».

في لهجته تحدٍ وكأنه يقول: افهمي ما شئت من هذا. سرعان ما أجفلت كلود حتى عضت بابيتي على شفتها لتمنع نفسها من الضحك، ولكن سرعان ما سيطرت على نفسها عندما كلمتها المرأة التي عاد إليها التكبر الشرير:

ـ أرجو أن تدركي كم أنك محظوظة في إقامتك هنا، بابيتي. إن «موتواروها» مناسب للحفلات والمرح ولكن كورد يعيش عيشة ناسك.

رفعت رأسها إليه مردفة: أنت مزعج فعلاً.. إنه لحري بك أن تقيم الحفلات. لا أظنك تعرفين هذا بابيتي، ولكن أسرة بلاكيارد من أقدم العائلات هنا.

قالت بابيتي بوجه جامد ولم تجرؤ على النظر إلى كورد لأنها شعرت بعبوسه:

ـ أمر رائع.

قاطعهما برقة يكلم كلود:

ـ أنت لا تشربين شيئاً.. تعالي كلود، سأحضر لك شراباً.

كان العشاء وجبة ساحرة.. فقد مدَّ على الشرفة المسقوفة طعام جنوب الباسفيك. وضع الطبق الرئيسي وسط المائدة الطويلة وهو سمكة بحرية ضخمة اصطادها ذلك الصباح زوج أورورا التي طهتها بكريما جوز الهند ووضعت حولها القريدس المسلوق. قُدِّم الطعام كله على أوراق شجر خضراء، حولها أزهار الخباز من مختلف

الألوان.

تناولت بابيتي طعامها ببطء قدر المستطاع، مع ذلك فقد اكتفت شهيتها القليلة قبل أي ضيف من الضيوف.

نظرت ڤالوري إليها:

ـ أواثقة أنك لا تريدين المزيد؟ أليست أورا طباخة ماهرة؟ يجب ألا آكل كثيراً، ولكنني أرضع الطفل، ويا لشهيتي! يا إلهي، هذا الفلفل الأخضر المحشو باللحم!

قامت بحركة كوميديا بوجهها فضحكت بابيتي.

ـ ألا تحبين اللحم؟

ـ بل أنا مفتونة به، لكنني أملت أن يكون محشواً بشيء أقل دهناً.. مثل الخس.

نظرت إليها بابيتي نظرة خبير: «لا أراك بحاجة إلى حمية».

جلس أركادي برشاقة إلى كرسي إلى جانب زوجته من الناحية الأخرى:

ـ إنها لا تحتاج فعلاً. هل أنت دائماً في الخدمة أيتها الطبيبة؟ لا شك أن هذا جزء أساسي من المهنة، فڤالوري لا تستطيع أن تنسى أنها كانت ممرضة.

ضحكت ڤالوري في وجه زوجها:

ـ بل أستطيع! منذ ولادة الطفل وأنا كالغبية.. إن ارتفعت حرارته قليلاً هرعت إلى الطبيب.

ابتسم أركادي لزوجته وقال مازحاً:

ـ نعيش نخشى أن يلتقط سعالاً ويتطور.

كانت الأمسية في غاية اللطف، هذا إن استطاع المرء تجاهل نظرات كلود ميللر الخبيثة.. لكن الغيرة التي لم تفهم لها سبباً غادرت نفس بابيتي بسرعة واستمتعت بوقتها علماً أنها اضطرت إلى

محاربة غريزة التملك التي كانت تظهر كلما رأت كورد يكلم إحدى النساء.. ولكي تتخلص من هذا الإحساس بدأت بمحادثة ديكسون عن أحد المعارض الفنية التي ستصل إلى أوكلند قريباً.

بعد وقت قصير من هذا، جلس كورد قربها وعيناه تبحثان في وجهها، وسأل بصوت هامس:

ـ على ما يرام؟

ـ لا تفتعل ضجة.

ـ امنعيني.

ـ أنا بخير.. كورد.

تقبل هذا، ولكن في وجهه تعابير توحي بأنه مستعد إن رآها تتعب نفسها لحملها إلى السرير وكأنها طفل متعب.. كان يجب أن تكون غاضبة لهذا.. لكن غصة في حلقها كشفت مدى تأثير قلقه عليها.

حاولت أن تنسحب من الجلسة الحميمة التي حققاها بسرعة. وفكرت في العودة إلى أوكلند سريعاً.. لكن كلود كانت قد تذمرت من الرطوبة هناك، ولم تستطع تجميع ما يكفي من قوة لاتخاذ القرار.

في منتصف الليل.. أخذت ڤالوري ابنها من غرفة النوم حيث كان ينام وعاد الجميع إلى اليخت تحت سماء مخملية شديدة الظلام مزدانة بنجوم متعددة الألوان كالجواهر..

اختلطت رائحة الملح الخفيفة بروائح الليل، وبعبير الأزهار الندي البارد وبرائحة العشب والحيوانات.. في مكان ما في الوادي تصاعد ثغاء الخراف التي تناقض ثغاؤها مع عواء السخط الذي أطلقه براوني الذي رفض رفضاً باتاً الابتعاد عن بابيتي.

علقت أورا على جمال الليل، وأضافت:

- إنها ليلة رائعة للعاشقين!

كانت بابيتي بعيدة قليلاً ولكنها رأت الطريقة التي أجفلت فيها كلود بسبب التعليق الجميل.. يا لها من امرأة مرهقة للأعصاب! ماذا تجد زوجة كورد فيها؟ رفيقة روح؟ أبعدت عن نفسها هاجس الغيرة بالسخرية.

بعدما ركب الجميع اليخت لقضاء الليل.. عاد كورد وبابيتي إلى المنزل، ولكن بابيتي أحست بتأثير نظرته الممعنة وكأنها تطعنها ما بين كتفيها.. مسكينة كلود!

ثم ابتلع ظل الشجر منظر اليخت.. شقا بصمت طريقهما إلى المنزل الذي كان يبدو حلماً وسط أنوار النجوم.

قالت فجأة بصوت هامس:

- شحرور! لا بد من وجود شحرور يغرد.

- أنت رومانسية.

- أتحدى أياً كان أن يكون واقعياً في ليلة كهذه.

وأشارت إلى جمال الحديقة والمنزل وأشكال التلال الدكناء خلفه. سألها: «وماذا عن الشتاء عندما تصرخ الريح في المغاور؟».

ضحكت بابيتي: آه.. ستكون ليالي درامية!

- وماذا عن الربيع حينما تمطر السماء أسابيعاً بحيث يصبح كل شيء موحلاً؟

- ومن يهتم، إنه الربيع، أليس كذلك؟ أنت رومانسي، ولقد اعترفت بحبك للمكان.

- هذا صحيح حقاً.

ثلاث كلمات ولكنها كلمات صارمة شديدة الوضوح لا لين فيها. سمعت بابيتي اللهجة العنيدة فيها وأحست ببرود غريب.

- أظن أن الوقت حان لأدخل.. عمت مساء كورد.. لقد

أعجبني أصدقاؤك.

- حتى كلود؟

- أحسست بالأسف عليها.. يبدو أن للحب تأثيراً على تصرفاتها.

لم تكن تريد سماع المزيد، خاصة إذا كان يريد الكلام عن كلود وصداقتها مع زوجته.. تثاءبت ثم ارتدت على عقبيها مبتعدة.

ضحك من بين أنفاسه وهمس: «تصبحين على خير».

جذبها بين ذراعيه يعانقها. ظلت للحظات مسمرة ولكن عندما تحركت المشاعر في أعماقها تأوهت وذابت عليه.. فهمس:

- حلوة.. أنت حلوة جداً.. فاتنة ساحرة حلوة صغيرة..

شهقت وهو يرفعها عن الأرض ويسير بها على المرجة إلى المنزل الصيفي، حيث جلست تكتب رسائلها.. ذهب عطر الزنابق بروحها، بحيث احتجت حين أنزلها على الأريكة، وجلس قربها، وأحاطها بذراعه لمنعها من التحرك.. مع أنها لا تريد أن تتحرك.

تحرك ليستلقي على ظهره ولكنه جذب رأسها إلى كتفه، وأخذت أصابعه تداعب خصلات شعرها. عندما تحركت لتقف، قال بصوت أجش:

- لا.. ابقي هادئة.. ففي هذه اللحظات، لا أثق بنفسي. لن يساعدني أبداً انتزاعك نفسك مني بهذه الطريقة.

ظلت كما هي، عدة دقائق... أخذ مد المشاعر يتلاشى شيئاً فشيئاً.

كانا يلعبان بالنار ولكن سيطرته على نفسه هي التي منعتهما من الاحتراق! أشعل الخجل بشرتها وتمتمت:

- أنا آسفة.

أمسك يديها بيديه وضمهما إلى صدره:

ـ وأنا كذلك.

ـ لم يسبق أن شعرت بما شعرت به الآن.

شعرت بالصدمة لأنها تكشف له شيئاً يجب أن يبقى مخبأ..

ـ وأنا كذلك.

كان صوته هذه المرة أكثر جفاءً من الرد الأول.. أضاف: «لكن العلاقة ليست مجرد رغبة.. غداً ستشعرين بالندم».

عضت على شفتها حتى الألم، وقد راعها إحساس غامر يحثها على التهور..

قالت بتجهم:

ـ لست مهيأة لأية علاقة.. لا أستطيع تحملها.. وليس بمقدوري استهلاك الكثير من الطاقة النفسية.

ضحك على كلماتها، ورد بجفاء:

ـ أو طاقة جسدية، في هذا الوقت.. فأنت كثيرة التجاوب.

همست مرتجفة:

ـ لا تقل هذا!

صمت قليلاً ثم قال: «آسف، من الأفضل أن نعود إلى المنزل».

قالت وهي تقف: أظن أن عليّ أن أعود إلى منزلي.

ـ لماذا؟ لن أفرض نفسي عليك عند كل فرصة، إن كان هذا ما تخشينه.

ـ لا أتصورك تفرض نفسك أبداً.

كان المنزل الكبير ينتظرهما مرحباً. عند منبسط الدرج، وضع كورد يده على كتف بابيتي يديرها إليه:

ـ لا تعودي إلى ديارك.. فأنا أستمتع بصحبتك.

ـ تبدو دهشاً لهذا.

بدا متعباً فجأة:

ـ أعتقد هذا. فما الاحترام والإعجاب من المشاعر التي أكنها الكثيرات من النساء.. ربما السبب هو أننا أنا وأنت متشابهان.. إذ نعرف ما نريد، وعلى استعداد للعمل من أجله ودفع الثمن.

لمعت الثريا كشهب نار في أطراف شعرها. كان التناقض بين الرجل الذي كان يرتجف منذ وقت قليل بالمشاعر، وبين هذا الواقف الآن ناظراً إليها مثيراً للاضطراب.

عندما أصبحت في غرفتها لم تتوجه مباشرة إلى النوم.. فبعدما ارتدت ثوب النوم، أطفأت المصباح، وتقدمت إلى النافذة.

كانت خائفة.. خائفة لأنها مجرد مسافرة في أرض غريبة، في أرض القلوب.. والمخاطر أكبر بكثير مما تخيلت يوماً.. ما زالت رائحته تطارد أنفها، وفكرت بجنون إن كان هذا هو السحر الذي يسلب لب الجميع.. فلا عجب.. لو كان عطراً يوضع في قوارير لجنى صاحبه ثروة طائلة من بيعه!

أسبلت يديها.. ما كان سيحدث لولا سيطرته على نفسه؟ ما من أحد حذرها من قبل من خطر التساؤل عن رجل.. أدركت أن أنفاسها أخذت تتسارع وهي تتلاعب بالخيالات والصور، ولكنها لم تكن تعرف أن الخطر كامن هناك.

حثتها غريزة ما على التوقف.. وقالت لها باشمئزاز: أيتها البلهاء..

ارتدت نحو الفراش. لفتت حركة صغيرة خارج النافذة انتباهها.. فتسمرت عيناها اللتان ضاقتا وهما تفتشان بين الظلال تحت شجرة ضخمة.. كان كل شيء ساكناً.. وكانت على وشك أن تستسلم عندما تحللت الظلال وبدا شكل آدمي.

إنها امرأة.. كلود ميللر.

أملى الغضب الصرف على بابيتي حركاتها.. ففتحت الستائر

ونادت:

ـ هل من خطب.. آنسة ميللر؟

أجفلت المرأة، وكأنها أصيبت بضربة... ثم ارتفع الرأس الأسود بتحد، وجاء الصوت الناعم.

ـ أبداً.. كنت أتمشى.. عمت مساء.

ـ عمت مساء.

في الفراش، وجدت بابيتي أن يديها ترتجفان وأحست بالغثيان.. كان عليها أن تجد صعوبة في النوم ولكنها كالعادة، غفت بسرعة، ما إن لامس رأسها الوسادة.

***

٦ ـ كلمة من حرفين

نامت حتى وقت متأخر.. كان براوني خارج الغرفة.. تناهى إليها عبر النافذة أصواتاً خفيفة وضحكاً..

قالت وهي تحس بالذنب: يا إلهي! واستخدمت كل خبرتها لترتدي ملابسها بشكل جيد ولتنزل إلى الأسفل في ربع ساعة، وشمل هذا تعثرها بالكلب خارج الباب.. لم يكن هناك سبب يدعو للحرج، ولكنها احتاجت إلى جهد لتخرج إلى الشرفة.. حياها الجميع بمرح بسبب عادتها في تأخرها في النوم ولكنه مرح أوحى بأنهم يظنون أنها أمضت ليلها بين ذراعي كورد.. وربما هي حساسة أكثر من اللازم.. ولعل ما لم يساعدها على ذلك اضطرارها لملاقاة نظرة كورد الحارقة كلما رفعت بصرها إليه.

مع ذلك، فقد ابتسمت رداً على ابتسامته وواجهت نظرة كورد الساخرة باتزان بارد وسمحت له بأن يجلسها ويقدم إليها القهوة والبطيخ. أخذت تأكل بنهم فيما الجميع يتحدث ممازحاً. حمل طفل بلاكيارد في مهد محمول. كان يناغي ويبتسم ابتسامات رائعة لكل من يأتي أمام نظره، بما فيهم السبانيال الفضولي.

ـ إلى هنا براوني!

أرجع أمر كورد الكلب إلى مكانه تحت كرسي بابيتي. وصاح الطفل متورداً من الغضب، فتنهدت ڤالوري التي نهضت لتحمله:

ـ أوه.. يا لهذا المزاج الخاص بعائلة بلاكيارد.. حين تكبر حبيبي، سيكون لك كلبك الخاص. أما هذا فلبابيتي.. أنت صبي جائع ومتعب، أليس كذلك؟ تعال لأطعمك.

ذهب أركادي مع زوجته.. بعد لحظة من ذهابهما صاح سايمون ديكسون:

ـ انظروا إلى الطيور.

قال الرجل الآخر، إنه قادر على أن يرى السمك يقفز من الماء وسرعان ما جرى الاتفاق على رحلة صيد سمك.. التفت كورد إلى بابيتي:

ـ أتريدين مرافقتنا؟.

ـ لا.. شكراً، سأجلس وأراقبكم، لأنني لست صيادة سمك.

قالت كلود برقة:

ـ سأبقى معك لأسليك.

رفع كورد حاجبه، فابتسمت بابيتي إشارة إلى أنها قادرة على التعامل معها.. أدركت أنه سمعها تنادي كلود ليلة أمس.. هز رأسه ولحق بالرجلين.

ران صمت حاد، قطعه وصول أورا. فقالت لها كلود:

ـ الآنسة.. بابيتي لم تنتهي حتى الآن.

نظرت إليها بابيتي بذهول، ثم نظرت إلى أورا، فشعرت بالراحة لأنها رأت ابتسامة هادئة على وجه مدبرة المنزل التي تضع الأطباق على العربة.

سألتها بابيتي بسرعة:

ـ هل نستطيع أن نساعدك؟

ـ لا.. اجلسي واستمتعي بأشعة الشمس.

جلست كلود هناك ترغي وتزبد حتى انتهت أورا وابتعدت ثم

قالت بصوت سمعته أورا بلا شك:

ـ لو كانت آنا حية، لما تجرأت على التصرف وكأنها تملك هذا المكان!

لم ترد بابيتي على هذا بل راحت تسكب لنفسها فنجان قهوة آخر، وارتدت تسند ظهرها في كرسيها، وكلها عزم على عدم الانجرار مع المرأة إلى خصام.. لن تترك المرأة تنعم بغضبها.

قالت كلود بضراوة شريرة بسبب إحباطها:

ـ بكل تأكيد تحب كورد.. ومن العجيب ألا يضع زوجها حداً لهذا.. إنما لديه عمل رائع مربح هنا، وسيكون أبله لو اعترض.

فتحت بابيتي فمها، ثم أقفلته بحزم.. عندما استردت سيطرتها على نفسها قالت بلطف:

ـ إن كلامك يفسر على أنه تشويه للسمعة.. وسيكون لكورد كل الحق في الاعتراض على مثل هذا النوع من الشائعات.

شدّ التوتر، وربما الخوف قسمات وجه كلود:

ـ حسناً.. لم أقصد أن هناك شيئاً بينهما فعلياً.. فكورد قادر على الحصول على أي امرأة يريد.

جعلت مثل هذه العجرفة المنحرفة أسنان بابيتي تشتد.. ودفعها مكر خبيث إلى التمتمة:

ـ وهو على الأرجح لا يتوانى عن ذلك.

مالت كلود إلى الأمام:

ـ بابيتي.. عليك أن تعرفي المزيد عن عائلة بلاكيارد.. سامحيني، لكن لا أظنك عرفت رجالاً مثلهم من قبل.. إنهم من سلالة فريدة من نوعها.. حينما يترعرع الرجال ويشبون ولديهم الميزات التي يملكون يصبحون متعجرفين، قساة القلوب في حياتهم الخاصة والعامة. ولأنهم رائعون يفلتون حتى من جريمة!

ـ هم؟

ـ كورد وأركادي بالتأكيد.

اعترضت بابيتي:

ـ لكن أركادي متزوج.. لا أفهم..

ـ لا أرى أن زواجه سيدوم! فهي ليست جميلة بل ليس بينهما ما هو مشترك.. لم يسمع أحد بها حتى تزوجها أركادي.

كانت نظرتها الماكرة توحي بأن كل من يهمه الأمر يعرف ما هي الظروف التي سبّبها زواج أركادي من نكرة.. استرخت بابيتي قليلاً في كرسيها، واستقرت تتمتع بنفسها.. فمثل هذه العجرفة المشينة نادرة في نيوزيلندا التي تؤمن بالمساواة، ولديها النية في الاستمتاع بما تسمع.. وسألت:

ـ هل هي في الجهة الخاطئة من الدرب؟

التقطت كلود السخرية والتسلية وراء السؤال المهذب:

ـ بالتأكيد لا! إنها نكرة فقط.

كان كلامها إهانة كاملة.. وربما حسب قاموسها هي إهانة..

ـ لا أحد يفهم لماذا تزوجها.. فهي غير جميلة. نعم هي مقبولة ولكن رجال آل بلاكيارد بحاجة إلى الجمال الحقيقي.. إنهم مدللون.. ولديهم كل شيء، المركز الاجتماعي، المال والسلطة، وهم إلى ذلك جذابون بشكل غير معقول.. لذا الجمال ضروري للحفاظ على اهتمامهم.

التوى فمها فأصبحت قبيحة فجأة:

ـ حتى الجمال ليس كافياً.. لم يبق كورد وفياً لآنا.. وهي كانت من أجمل المخلوقات التي رأيتها في حياتي.

جعلها هذا الاعتراف تلزم الصمت طوال فترة تشويه السمعة.. وأحست بالتلوث.. إذا لم تكن كلود قادرة على رؤية ما هو بديهي،

من أن أركادي وڤالوري غارقان في الحب، فهي معمية البصر بأحكام مسبقة تؤمن بها، أما بالنسبة لخيانة كورد فقد رفضت بابيتي الفكرة كلياً. إن أي شخص قادر على رؤية ما يملكه من الكرامة والاتزان اللذين يمنعانه عن مثل هذا.

ربما كشف وجهها شيئاً من أفكارها، فقد مالت كلود إلى الأمام ثانية وقالت لها بخبث شرير:

ـ كان شعرها بلون النحاس المحروق، وعيناها زرقاوين كبيرتين. كانت تبدو كعارضة أزياء! أحبها الجميع وكيف لا يحبونها وهي امرأة مفعمة حيوية وإشراقاً.. افتتن كورد بها، ولاحقها حتى فاز بها.. أحبها كثيراً.. كان حفل زفافها زفافاً كبيراً، كنت فيه الإشبينة.

سألت بابيتي: «إذن.. ما الذي حدث؟»

ـ خنقها هذا المكان. قال كورد إن مكانها هنا.. معه ولكنها لم تكن تخشاه فتشاجرا.. يا إلهي كيف كانا يتشاجران.. وأظنها كانت تتمتع بهذا. قالت إنها تتمنى لو تستطيع الانتقام منه بأية طريقة وإنها ستجعله يفقد أعصابه.. ولكنه لم يفقد أعصابه.. بل سئم منها، وتركها هنا بمفردها مع جواسيسه عندما كان يسافر إلى ما وراء البحار، وما أشد ما كرهت هذا.

كانت كلود تتكلم بسهولة ولكنها كانت ترنو بطرفها إلى بابيتي، وأصابعها الشاحبة معقودة في حجرها.. كم من هذا الكلام تصدق كلود فعلاً؟ بابيتي بارعة في تقويم الناس وهي تميل إلى الاعتقاد بأن كلود تجدها تهديداً لها وتحاول إخافتها.

تكلمت مجدداً:

ـ كثيراً ما اتصلت بي وكثيراً ما بكت بشدة. لم يساعدها والداها بل كانا يقولان إنها كانت تعرف أين يعيش حين تزوجته!

بدا لبابيتي وكأن والدي آنا كانا سعيدين بالخلاص من ابنتهما المدللة الهستيرية الطبع ولا رغبة لهما في عودتها إليهما.. مسكين كورد! ومسكينة آنا التي كان عليها أن تملك العقل الراجح لتتزوج برجل ثري من المدينة يخضع لإرادتها.

أضافت كلود: كانت في غاية التعاسة وكانت مشهورة، وقد أراد مئات الرجال الزواج بها.. لكن، بعد سنة، رفض كورد مطارحتها الغرام.

أحست بابيتي بالسقم ولامت نفسها لأنها سمحت لهذا الحديث بالاستمرار.. هبت على قدميها فشهقت كلود التي كانت حتى تلك اللحظة غير واعية لما تقول، مع ذلك بدا في عينيها وميض أسود جعلها تبدو كاذبة.

ربما أحبت آنا.. ولكنها كرهتها أيضاً لأنها أرادت زوجها.

قالت بابيتي بطريقتها المهينة الباردة:

ـ قصة حزينة جداً.

ـ لقد جعلها تعيش في الجحيم.

أرعبت اللهجة الحقود بابيتي:

ـ لا أظن أن أياً منهما كان سعيداً.

ـ سعيداً؟ يا إلهي! أتكونين سعيدة مع رجل يرفض مطارحتك الغرام؟

ـ اسمعي، لا أعتقد أن عليك أن تقولي هذا لي.

ضحكت كلود بسخرية: «ولماذا لا بحق الله؟ كانت تقول آنا ذلك للجميع.. ولكن من كان يستمع؟ في إحدى المرات قالت له إن عليه ألا يتوقع منها مشاركته الفراش حتى يكون مستعداً للاستسلام لها.. وعندما صعدت تلك الليلة إلى غرفتهما، وجدت أن كل ما يخصها قد اختفى منها. لقد طلب من مدبرة المنزل أن

تخرج أغراضها من الجناح الرئيسي.. كل شيء! مع ذلك لم تستسلم بل ظنته سيتوسل إليها لتعود، ولكنه لم يقترب منها مرة أخرى.. ولم يكن قد سبق أن نبذها أحدهم.. كان ينظر إليها وكأنها غير موجودة».

بدا لها أن كورد تزوج وهو في نوبة افتتان، وأن نقص نضوج زوجته، ونوبات الغضب المصاحبة لزواجه دفعتاه بعيداً عنها. هو رجل متكبر، لذا شعر بالاشمئزاز لأنها دأبت على نشر تفاصيل زواجهما الحميمة ولأنها حاولت ابتزازه جنسياً.

لم تعد بابيتي راغبة في سماع المزيد عن زواجه بل ما كان عليها أن تسمح لها بالمضي في الحديث.. ولكن فيما كانت تهم في وضع حد للحديث تكلمت كلود مرة أخرى، وكان في كلامها يأس جعل بابيتي تصمت، وتفكر في أنها امرأة مريضة. ربما بدأت كلود حديثها وفي نيتها إخافة بابيتي ولكنها بدأت تخرج الآن ما في نفسها، سعياً إلى الراحة من الحمل العاطفي الذي أصبح أثقل من أن تتحمله:

ـ لقد تشتتت قواه حين ماتت.. وقعت بينهما مشاجرة أخرى. أرادت أن تذهب إلى إحدى الحفلات فرفض أن يصطحبها بالمركب إلى البر الآخر.. كان يوماً مجنوناً.. ولكنها قالت له إنه خرج في طقس أسوأ منه من قبل.. قالت له إن كان خائفاً أن يذهب فهي غير خائفة وقررت أخذ اللانش.. فأقفل الباب عليها في غرفتها.. اتصلت بي، كانت تصرخ من شدة غضبها، وقالت إنها ستتركه فقد كفاها ما عانته منه.. حاولت أن أقنعها بألا ترتكب خطوة غبية، ولكنها لم تصغ.. تسلقت النافذة وخرجت.. استقلت اللانش الذي لم تستطع السيطرة عليه، وكان كورد على حق. لقد كان الجو رهيباً بحيث يمنع أياً كان من الخروج وبما أنها كانت عديمة الخبرة في هذا

المضمار اصطدمت بالصخور وغرقت. . سمعت الخبر في الراديو ولكنه لم يتصل بي. .

أغرقت الدموع عينيها الجميلتين، وابتلعت ريقها بصعوبة مرتجفة قليلاً. . بعد لحظة أضافت متمتمة:

ـ يجب أن تكون المرأة مميزة جداً حتى ترضى أن تكون دائماً في الدرجة الثانية بعد موتواروها.

قالت بابيتي بلطف: «هذا صحيح».

عادت ڤالوري في الوقت المناسب وكان يعلو وجهها الحيرة لأنها لاحظت المنظر أمامها. . بدأت تخبرهما بلباقة عن عادة ابنها بالغناء عندما يرضع. راحت كلود تصغي إلى الحديث، رافضة النظر إلى بابيتي.

ـ لا أعرف ماذا أفعل به. . إنه كثير التطلب، ومصمم على تنفيذ ما يريد. هو كأبيه.

هزت كلود رأسها بمكر:

ـ أجل. إنه كأبيه. . أين هو أركادي؟

ـ لقد خرج مع الصيادين.

وضحكت مازحة فهي تحب زوجها، وهو يحبها. . أحست بابيتي بالرضى عندما سعت عيناه إلى عيني زوجته عندما عاد مع الرجال الذين كانوا يحملون بانتصار صيدهم الوفير.

حضرت أوروورا الأسماك مشوية على الطريقة التاهيتية وتناولوها على الغداء. . ثم غادر الضيوف في اليخت إلى «كاواد» وهي جزيرة جميلة غير بعيدة ومن هناك كانوا ينوون العودة إلى ديارهم. .

قالت ڤالوري لبابيتي ساعة الوداع:

ـ زورينا. . لا أريد أن أفقد الاتصال بك مجدداً.

ـ سأحب هذا كثيراً.

لكنها لم تكن تنوي زيارتهما. فبعد مغادرتها المكان، ستحاول نسيان الزيارة كلها. . لكن ڤالوري نظرت إليها بحدة وقالت:

ـ هاك رقم هاتفنا. . اتصلي بنا.

ـ شكراً لك.

إنها امرأة لطيفة.

كانت الأيام التالية ذكرى لحياة أخرى. . ففيها قضت أوقاتها بالاستجمام تحت أشعة الشمس. وكانت تسبح في الخليج التابع للمنزل، وتركب الأمواج على الألواح الشراعية، وتسير مع الكلب على الشاطىء.

كانت تلعب نهاراً مع الأولاد ثم تعود إلى المنزل متعبة حيث تقضي الأمسيات بالتحدث إلى كورد وبالقراءة وبالاستماع إلى الموسيقى. وما أشد ما كانت سعادتها.

قالت وهي في الأرجوحة: «أنا مستمتعة كل الاستمتاع بأوقاتي».

رفع كورد رأسه عن صحيفته:

ـ أتعيشين من أجل المتعة فقط؟ لقد آن الأوان لهذا. . تكاد الظلال تحت عينيك تتوارى ولم تعد تبدو خطواتك وكأنها الأخيرة. وقد سمن الكلب كثيراً، لذا عليك أن تخففي من إطعامه. . ستفسدينه أنت وأورا. . هل قررت ما تفعلينه به بعد عودتك إلى ديارك؟

ـ سأرى ما إذا كان سيجد السعادة معي. لي جارة تحب الحيوانات وقد تكون على استعداد للعناية به في الأوقات التي أكون فيها في العمل.

ـ هذا معقول.

لم يتباحث معها قط موضوع عملها، وكانا يتكلمان في أي

شيء وكل شيء.. ولكن كان إدراك أحدهما لوجود الآخر يضفي على الحديث شيئاً من التوتر.. ورغم ذلك لم يتعانقا. كانا أشبه بصديقين قديمين ليس بينهما لحظات حساسة يتذكرانها. ولكن عندما كانت تلتقي العينان الذهبيتان بالخضراوين كانت تعود تلك اللحظات الحارة إلى الحياة، وكأنهما يعيشان على شفا بركان لذا وجدت أن أفضل ما تفعله الرحيل.

كان ذانك الأسبوعان أفضل أسبوعين في حياة بابيتي. كانت الابتسامة التي تمنحه إياها مفعمة بالشكر والعرفان بالجميل.. وبشيء آخر لم تكن تعرف ما هو.. في إحدى المرات قال لها:

ـ تعالي نسبح.

كانا قاعدين على حافة المسبح قرب المنزل، وهو مسبح صممته زوجته. ما هي إلا لحظات حتى سمعا صوت جاكي روفوس زوجة رئيس الرعاة تنادي وهي تدخل من بوابة الحديقة:

ـ أنا آسفة.. كورد.. لقد تلقيت لتوي مخابرة من إيدن يقول فيها إنه آت لزيارتنا في نهاية هذا الأسبوع! لذا فكرنا في حفلة شواء للاحتفال بعيد مولده.. مرحباً بابيتي.. ابني قادم يوم السبت مع ستة أصدقاء للاحتفال بعيد مولده الحادي والعشرين.

وضعت بابيتي منشفة على كتفيها:

ـ هذا عظيم.

سألها كورد: «هل تكلمت مع أورا بالأمر؟»

ـ أردت التحدث إليك أولاً لأرى إن كنت تخطط لأمر ما في نهاية الأسبوع.

قال ممازحاً: «لدي فقط.. حفلة عيد ميلاد.. بإمكان أورا أن تأخذ قدر ما تشاء من وقت في مساعدتك».

ـ شكراً كورد.

عندما ذهبت قال لبابيتي:

ـ الأفضل أن تذهبي لارتداء ملابسك، قد تصابين برشح.

ارتجفت إنما ليس من البرد.

ـ ماذا يعمل ابن جاكي؟

ـ إيدن الصغير؟ إنه في الجيش.. لا أظنك شاهدت حفلة أقيمت سابقاً؟ ففي مثل هذه الحفلات يحضر الجميع ويقدمون المساعدة، لهذا ذهبت لرؤية أورا.

عادت جاكي مبتسمة.

ـ لقد رتبنا كل شيء.. ستكون حفلة مرحة جداً! كورد.. أنت حبيب.. والآن، من أين لي بخمس فتيات للأصدقاء القادمين برفقته.

بدت المرأة مرتبكة.. ولكن بعد برهة ضحكت:

ـ آه! يا إلهي.. كان عليّ أن أصوغ السؤال بكلمات أخرى. أليس كذلك؟ لا بأس تعرفان قصدي.. يجب أن أذهب لأضع لائحة بما أريد جلبه.. شكراً لك كورد جزيلاً.

ما إن ذهبت المرأة حتى قالت بابيتي بخبث:

ـ يجب أن أعترف بأنني كنت حائرة لأنهم ينعتونك بالحبيب.. لكن يبدو أن أورا ستقوم بمعظم العمل.

ـ ألا تظنين أنني إنسان محبوب؟

أدهشها العبث في صوته ولكنها ردت بلطف:

ـ أعتقد هذا بالتأكيد.. تعرف أنك لا تقاوم، وتعرف أنني مجرد فتاة ساذجة بسيطة.. لا! لا تجرؤ على الرد! أسحب كلامي! مع أن عليّ أن أقول إنني فخورة بهذا الوصف..

ـ وأنا من اعتقدت أن مديحك لي جاء طبيعياً.. مسرور لأنك تتجهمين حين تمدحينني.. تعالي الآن، فلنذهب لترتدي ثيابك..

ابتسمت بابيتي، وقالت:

ـ جاكي على حق أنت محبوب.

هز كتفيه بسخرية:

ـ عليك إن عشت على جزيرة كهذه أن تكوني طيبة مع العمال.. فمن الصعب جداً إيجاد من يحل مكانهم. يحب الرجال العيش هنا، ولكن النساء يفضلن أضواء المدينة.

ـ حسناً.. هذا ما يعيدني إلى مكاني.. حسناً.. بتُّ أعرف أن اسمك الآخر هو محارب الاضطهاد.

ـ كان سيجدني بعضهم وصمة عار في جبين الرأسمالية.

ضحكت لأنها عرفت أنه يعنيها، وافترقا عند بوابتي غرفتي تغيير الملابس.. لكن فيما كانت تستحم ثم ترتدي ثيابها أخذت تتساءل عن سبب إظهاره السخرية في بعض الأوقات.. هل هي آنا؟

عرف كلاهما كم أن المكابح التي وضعاها لنفسيهما ضعيفة.. إذ كانت ترفع رأسها أحياناً فتراه ينظر إليها، وعلى وجهه مشاعر كئيبة، كانت تحول وجهه إلى قناع برونزي من المشاعر ولكنه سرعان ما كان يسيطر على نفسه. إن آخر ما تريده هو علاقة، فأمامها سنتان من العمل الشاق، وامتحانات بعد سنة ونصف. فإن أرادت النجاح فعليها الدراسة بجهد مضاعف.

إذن.. لا وقت لأي شيء آخر، خاصة الحب!

كما أن على كورد أن يبحث عن زوجة.. لا عن علاقة عابرة.. لقد أمضت ساعات في فراشها تفكر بطبيعة الزوجة التي يحتاج إليها.. في الواقع، كانت فخورة بقدرتها على النظر إلى المسألة بشكل هادف.. إنه بحاجة إلى امرأة ترعرعت في الريف.. امرأة طيبة عاقلة تجد اكتفاءها في الزواج والأولاد، والحياة على الجزيرة.. ومن الغباء أن تتمنى أن تكون هي من هذا النوع من

النساء.

تلك الليلة شاهدا نقاشاً عاماً على التلفزيون بين ممثلين عن مختلف قطاعات التصدير في البلاد.. حين انتهت الندوة، أقفل كورد الجهاز قائلاً:

ـ أشعرت بالملل منه؟.

ـ أبداً.. ثمة شيء واحد أندم عليه في دراستي هو أنه عالم مغلق قليلاً.. وماذا عن الماعز؟ والغزلان؟ سمعت أن الحكومة تعتبرها وباء، وأن الصيادين الحكوميين يصطادونها بطائرات الهيلوكوبتر.

ـ إنهم يلتقطونها الآن بالهيلوكوبتر.. والعملية مثيرة جداً.. لقد خرجت بنفسي ألتقط الماعز البري عدة مرات منذ سنوات.

اقشعر جسمها من جراء ما رواه عن الماعز، إنها معلومات كشفت عن ميل للقسوة.. ولكنها فهمت السبب أيضاً.. فموت والده دفعه إلى مواجهة المسؤولية قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وهذا ما وضع على عاتقه مسؤوليات جسام لذا لا غرابة أن يظهر عليه أحياناً الميل إلى القسوة.

قالت معلقة: «أستغرب لأنك لم تؤذ نفسك بسبب القفز من الهليوكوبتر هكذا! أراهن أن معدل الخطر على الصيادين مرتفع جداً».

ـ لكنهم ليس بالأغبياء، وهم من صنف قوي قاسي. إن الأمر يبدو أخطر مما هو في الواقع.. على أي حال.. ألم أسمع الصبية يتفاخرون بأنك ماهرة في الغطس؟ أخبروني أنك قفزت من الصخور إلى البحر وهذا يعني أكثر من عشرين قدماً ارتفاعاً.

تورد وجهها:

ـ كنت أتمرن على القفز منذ الدراسة الثانوية.. وأنا فعلاً

قادرة. . عرفت جيداً ما أفعل. . ولكنني لم أعرف أنهم يراقبونني!

ـ إنهم أذكى من أن يقلدوك. . أنت صغيرة الحجم بحيث تثبطين عملية المنطق لدي. . آسف.

ـ أظن أن هذا ما دفعني إلى دراسة طب الأطفال. . فلو دخلت إلى مقهى عام لاضطررت إلى إبراز رخصة قيادتي، وليس لديك فكرة إلى أي مدى هذا الأمر مثير للسخط!

رد متجهماً: «أعرف بالتأكيد. يعاني الجميع في وقت ما من أفكار خاطئة ما».

ـ حتى أنت؟

نظر ببرود إليها:

ـ ولماذا أكون استثناء؟ ما يشتريه المال يرضي الإنسان، لكن، هل فكرت يوماً ما هو إحساسك عندما تضطرين إلى شراء أشياء معينة كالصداقات. . النساء، التسلية. . وحتى الزوجة؟

اشتدت أصابعها على راحتيها العرقتين فجأة. . لم يكن لديها ردٌ. . لكن وجدت أن عليها التلطيف من كلماته.

قالت بهدوء:

ـ تقول هذا لأنك ثري ثراء فاحشاً ولأن الناس يعاملونك بطريقة مميزة.

ـ أتتذكرين المحاضرات التي تلقيتها في الفلسفة؟

عضت على شفتها، غاضبة منه لأنه فهم ما تقول بسرعة:

ـ حسناً. . أليس هذا ما تعني؟

ـ أعتقد هذا.

ـ يا للمسكين الثري!

اختفى الاكتئاب، وقال بمرح:

ـ أنت شريرة رغم طيبتك. . انكري أن فضولك لا يدفعك إلى

التساؤل عن سبب زواجي بآنا، وسأصدقك.

ـ أنت إبليس!

رد بهدوء: «لا. . بل أعرف كلود. . فطالما كانت أفكارها واضحة. . لقد تزوجت آنا لأنها أقنعتني بأنها تحبني وبأنها ستكون سعيدة بالعيش هنا. . وكنت قد وجدت أن الأوان قد حان لأستقر، وكنت مستعداً لمجاراتها. والله يعلم أنها كانت جميلة جمالاً يثير أي رجل».

ـ مسكينة آنا.

هز رأسه: «آه. . أجل. . مسكينة آنا. . لقد وجدت الحياة هنا مملة لا تطاق، ثم اكتشفت أن الرغبة وحدها تثير الغثيان. . لم يكن لدي فكرة عن مدى غبائها. لم أدرك إلا متأخراً أن وراء الحيوية والإشراق امرأة فارغة. . لم تكن قادرة على التفكير، ولكنني لم أتمنّ لها الموت».

ـ وما كنت لأشكّ في ذلك.

نظر إليها نظرة خبيثة مشرقة:

ـ لا. . أعرف هذا. . فأنت إنسانة حنونة بابيتي. . ليتك غير مخلصة لطموحك. حين أتزوج مرة أخرى أنوي الزواج بامرأة لن تقتل نفسها من كثرة السأم كما فعلت آنا.

آلمها سماع هذا. . اندفع إحساس مدمر فيها كالصاعقة. هذا صحيح. . تلك الليلة، بدلاً من الانغماس في تخيلاتها أخذت تراجع كلماته، فتذكرت على مضض وميض الألم في عينيه عندما تحدث عن زوجته ورفضه تجميل ما قام به.

إنه رجل معقد. . عنيد صعب المراس وقد حذرها بصدق يكاد يكون إجحافاً.

بكت بابيتي. . فمن الخسارة أن تحس بدمها يغني، وتعرف أن

هذا الغناء من أجل رجل، لن يكون لها أبداً..

قالت تصد نفسها: إنها الرغبة!

لكن قلبها همس كلمة أخرى من حرفين!

* * *

٧ ـ أرض محرمة

وضعت أورا يديها على وركيها، وتفرست ببابيتي قائلة بحزم: «لا».

ـ اسمعي.. أعرف أنني لستُ أفضل طباخة ولكنني أستطيع أن أتبع التعليمات.

ـ ما زال وزنك أقل من المطلوب وأنت سرعان ما تتعبين.. لن تقضي يومك في المطبخ على قدميك، ويبقى فيك طاقة كافية لقضاء السهرة الليلة في الحفلة.

ـ لكن..

ـ لا.. قال كورد إن عليك أن تستريحي.

رفعت ذقنها إلى فوق بعناد.

ـ وهل كلمته مقدسة؟

ـ أجل.. قد يتأكد بنفسه إن كنت تطيعين أوامره.

ـ كيف؟ يربطني في الفراش؟

ابتسمت أورا ابتسامة ذات معنى.

ـ أشك في أنه يفكر في راحتك بل أراه يفكر في أمر آخر.

ضحكت فارتفع اللون الوردي إلى خدي بابيتي التي ردت:

ـ أنت.. أنت تفكرين بطريقة قذرة.

ـ بل أفكر بطريقة واقعية عملية.. والآن، لماذا لا تذهبين إلى

السباحة ثم تغتسلين وتسرحين شعرك الجميل وبعد ذلك تستعدين؟.

ـ أحس أنني عديمة الفائدة.. أنا في السادسة والعشرين لا في العاشرة من عمري!

ـ تصرفي كالكبار أعاملك على هذا الأساس، من الأفضل الإحساس بأنك عديمة الفائدة على الإحساس بالإرهاق.. لست مجبرة على إثبات شيء لي.. ستفسدين كل شيء على الجميع إن اضطررت إلى العودة إلى المنزل باكراً الليلة.. أو تعبت ووهنت كما يحدث لك حين تتعبين نفسك كثيراً.

نظرت بابيتي إليها بثبات: «إنها ضربة قاضية بل هي شريرة أيضاً».

كان الوقت يقترب من الغروب حين استيقظت بابيتي بعدما اتبعت تعليمات أورا بالكامل. حل محل متعة اليوم إثارة قلبت عينيها إلى قطعتين من الجوهر الأخضر، في وجه مشرق. فيما كانت تسرح شعرها الناعم الكثيف وتتبرج، قالت لنفسها إن لا حاجة إلى مثل هذا الترقب، فهذه حفلة عادية.. وهي عادة لا تحب الحفلات كثيراً.

لكن جسمها وقلبها عرفا ما كان يرفض عقلها الاعتراف به.. وراء الوميض في عينيها، هناك غاية ما، كانت سترعبها لو فهمت سببها.

قالت ليراوني وهي تربت على رأسه:

ـ والآن.. لا عواء أو صراخ.

كان كورد بانتظارها في أسفل الدرج، يستند إلى إطار باب برشاقة بدت متناقضة مع رجل في مثل حجمه.

أخذت الإثارة ترفرف داخلها وتضرب بجناحيها في صدرها..

توجهت إليه بوقار. أسرت عيناه عينيها.

قال وهو يمد لها يده:

ـ أنت تحرقين قلبي.. بابيتي.

همست: «لا تقل هذا».

رفع يدها إلى فمه.. حدقت إلى أهدابه السوداء وإلى جبهته العريضة، وخديه وفكه القوي. ارتجفت يدها، فاستقام وقال بصوت أجش:

ـ أنت فتنة لا أستطيع مقاومتها.. لو كنت شاعراً لاستطعت أن أخبرك بما يصيبني عندما تنظرين إليّ هذه النظرة فأرى وعود الفتنة في عينيك، ممنوعة، محرمة، ومستحيلة.. لذا أراني أحلم كل ليلة الأحلام اللعينة نفسها.

جردها الصدق الصارخ في صوته من قوتها. عمَّ التوتر في الجو فترة طويلة. ثم، وكأنما أسدلت ستارة، ارتد إلى نفسه.. ثم انطلقا معاً إلى خارج المنزل.

في منتصف طريق المنزل الداخلي أشار إلى سحابة خفيفة في الأفق، تشير إلى تبدل الجو الوشيك.. بعد فترة غير طويلة أصبحا قرب المنزل الذي يقصدانه.

استقبلهما جاكي وبيكل روفوس بحماس. وكان معهما شاب طويل، هو ضيف الشرف، نظر إلى بابيتي نظرة إعجاب صارخ واحترام قبل أن يصافح كورد باحترام أكبر وبمحبة واضحة.

كانت حفلة ممتعة إلى أقصى حد. في منزل أسرة روفوس حديقة جميلة وشرفة عريضة. كان الجميع مصمماً على الاستمتاع، وهذا ما حصل.. لم يمض وقت حتى عمَّ الهرج والمرج. كان هناك عبث ومزاح ورقص، ثم مدت مائدة الطعام وبعد ذلك قطع إيدي قالب الحلو ضاحكاً متورد الوجه ورد بجرأة على خطبة كورد

الصغيرة.

بعد ذلك أرسل الأولاد إلى النوم في غرف متعددة، وأصبحت الموسيقى هادئة ورومانسية.. تقدم كورد مبتسماً ابتسامة لم تكد تبلغ عينيه، وأخذ بابيتي بين ذراعيه يراقصها.

أحست وكأنها عادت إلى حيث تنتمي، فأراحت جبهتها على كتفه.. أجبرت نفسها على الاسترخاء، فهذا ما كانت تترقبه.. كان يمسكها وكأنها أثمن شيء أمسكه في حياته.. ووجدت عينيه جامدتين خاليتين من التعبير.

ما إن توقفت الموسيقى حتى تركها بدون أن ينظر إليها.. بدا راضياً بتركها تدور بين أصدقاء ضيف الشرف الخمسة وقد رقصت بدافع الواجب تقريباً مع جميع الرجال المتزوجين، ومع شابين غير متزوجين.. تحدثت، ضحكت، عبثت قليلاً.. لا شك أنها تصرفت بشكل طبيعي، فما من أحد نظر إليها على أنها مجنونة.

أخيراً بدأ المدعوون بالرحيل.. وتبودل الوداع، وحمل كورد الصبي فأحست بابيتي كأن قلبها يُعتصر.. كان يجب أن يكون عنده أولاد فهو بلا شك أب رائع، صحيح أنه قاس ولكنه محب.

ثم قفلا راجعين إلى المنزل وهما متقاربان إنما بدون أن يتلامسا. تثاءبت بابيتي، وتعثرت، فمدت يداً إلى الأمام لتحافظ على توازنها، فالتقطها وأسرع يرفعها بين ذراعيه.

قال: هس! وماتت احتجاجاتها على الفور.

قالت: «أسمع دقات قلبك..»

لماذا تقول هذا؟ وبمثل هذا الصوت المثير؟

ـ مذهل لأنه لم يصمّ أذنيك!

ـ سأعود غداً إلى بلدي.

اشتدت يداه على قدها:

ـ تأخرت.. لو أردت الخلاص حقاً لذهبت منذ اليوم الأول.

ران صمت متوتر، شديد الوطأة قبل أن يقول بتجهم:

ـ ولكنني كنت سألحق بك.. لقد حدث هذا في الدقائق الخمس الأولى.. يا قلبي.

ـ أعرف.

رفعت ذراعاه حملهَ إلى الأعلى.. وأغمضت بابيتي عينيها لتصغي إلى رعد قلبه. أخذ الدم يغني طرباً في شرايينها فبعث الحرارة إلى بشرتها، وزاد من تورد شفتيها.

ظلت مغمضة العينين حتى حين شعرت بالفراش تحتها.

سألها: «هل أنت نائمة؟»

ـ لا..

ـ أمستريحة هكذا؟

همست، وهي تنظر إليه من بين أهدابها: «أجل».

كان المصباح الصغير مضاءً خلفه فظهر وكأنه صورة سلبية سوداء، وكانت خطوط وجهه المتكبرة غير مقروءة تحت الوهج الذهبي.

وضعت بابيتي يدها على يده المستريحة على كتفها.. وراح قلبها يقفز كحيوان برّي.

توقعت عناقاً جائعاً ملؤه الشوق ولكن لمسته كانت دافئة لطيفة، تنتظر منها المبادرة. في تلك اللحظة تسللت ذراعاه لتجذباها عن السرير ولتضماها إليه. ظلت للحظات سلبية معه ولكن سرعان ما تحركت مشاعرها فاستجابت لعناقه.

ولكنها انتفضت عندما شعرت بأنفاسه المتحشرجة المتسارعة. وابتسم: تعالي إلى هنا! إنها ابتسامة الذئب، ووجه الصقر.. فكرت مذعورة: ماذا أفعل؟ أسبلت يديها بعيداً عنه وشدت على قبضتيها

بتوتر.

أمسك يدها قائلاً بهمس شرس:

ـ فات أوان التراجع.

بدأت تقاومه، تنظر إلى وجهه الذي لا رحمة فيه بعينين واسعتين.. قبضت يده على يديها من الخلف، فيما اليد الأخرى شدتها إليه.. شهقت بابيتي.. فأسرع يتركها.. فتعثرت ورأسها إلى الأمام، فأمسك بها وما هي إلا لحظة حتى كانت على السرير.

فجأة تسللت دموعها إلى وجنتيها بصمت.. فتقدم كورد يحتضنها ويمسّد خصلات شعرها ويتمتم كلمات يريد بها تهدئة روعها.

قدم إليها منديلاً.. فنفحت فيه أنفها، ومسحت عينيها ثم قالت بضعف:

ـ كيف يمكن للناس أن يتحملوا كل هذا؟ آسفة، لا شك أنك تظنني مجنونة.

رد بأدب: «أبداً.. أنت مشحونة المشاعر.. وهذا كل ما تعانين منه».

ضحكت: «وهل يهزك شيء أبداً؟»

قال بجرأة: «أنت هززتني..»

تركها ووقف قرب النافذة ينظر إلى الخارج نظرة فارغة..

راحت بابيتي وهي مستلقية على السرير تتساءل عما يدور في هذا العقل الذكي قلقة: أنا أحبه.. يا لغبائي!

ـ بابيتي.. هل تتزوجينني؟

تكلّم ببرود وبدون تعابير أو تركيز..

قالت بهدوء: «لا.. لن ننجح. تعرف هذا كورد».

عندما لم يرد، تابعت بسرعة:

ـ أعرف أن مثيلاتي نادرات هذه الأيام.. لكن الحصول عليّ لا يعني بالضرورة الزواج.

رد بغضب: «امنحيني درجة بسيطة من نقاء النفس عزيزتي.. أنا لا أحاول شراءك بخاتم زواج».

ظنت بابيتي أن قلبها سيتحطم.. لكنها تمكنت من القول:

ـ لقد أرضيت غروري بطلبك هذا.. لكن..

ـ أرضيت غرورك؟

ارتدّ إليها فجأة، فرأت على وجهه ابتسامة أرعبتها. ضغطت ذراعيه الغطاء فوقها بحيث لم تعد تستطيع رفع يديها من تحته، فظلت ساكنة وعيناها كبيرتان في وجهها الصغير وهما تبحثان في عينيه. لقد أطلق تعليقها البريء الشيطان في نفسه وبدا في ضيق الذهب القاسي المشتعل من بين أهدابه.

قال برقة حريرية مخيفة:

ـ ولماذا على طلب زواج صادق شريف أن يرضي غرورك؟

بدا لها غير مهتم، وكأنه يقوم بتجربة لا يهمه نتائجها.

ـ لست مضطراً لإجباري على الرد.. لكن إن كان هذا يرضيك..

تنهد بصمتها بيده، وأسند رأسه إلى كتفها.. بقيا هكذا فترة طويلة، بابيتي تلمس شعره البراق بأصابع محبة.. أخيراً قال:

ـ أنا ثقيل الجسم.

وتحرك لتتحرر.

ـ هل أنت ذاهب؟

ابتسم: «نعم، عليّ ذلك فأنا بشر ولي قدرة محددة على النفس».

ولّت الغيمة التي كانت مسيطرة ليلاً، وتغير الجو بعدها. ولكن

الجو الصيفي المثير ولّى أيضاً. كانت السماء صافية والشمس شديد
الإشراق لكن الهواء كان حاراً وقوياً.

بعد الفطور خرج كورد ليسوق قطيعاً من الماشية من الجانب
الآخر من الجزيرة. أما هي فوضبت حقيبتها، وخرجت لتود
الجميع.. وكم فاجأها الأسى المنفتح الذي قوبل به قرارها.

قالت جاكي روفوس بمرح فضولي: «ولكن سنراك مر
أخرى».

ابتسمت بابيتي متألمة، ولم ترد. وعندما كانت عائدة إلى
المنزل، أحست بالألم لأنها لن ترى أحداً من «موتواروها» مر
أخرى.. لن تعود.. وها هو المنزل والمزرعة، وكل من يعيش فيهما
يغدو من الماضي منذ الآن.

سألت نفسها ساخرة: ولماذا لست شخصاً مختلفاً؟

لكن السؤال سخيف.. إن كورد يحب أرضه، التي يجد فيها
اكتفاءه. إنه مزارع، لذا لن يستطيع العيش في أوكلند، وهي لن
تستطيع العيش إلا في مدينة.

انهمرت دموع سخينة من عينيها، ثم انهارت أمام نظرة أورورا
القلقة في كرسي على الشرفة وراحت تبكي بصمت.

ـ لا يأتي من التعلق بشؤون كورد خير. في المرة التي رأيت فيها
امرأة باكية في هذا المنزل، ماتت بعد ساعات.

كان صوت أورا مناقضاً للقلق الذي لم تستطع إخفاءه عن
وجهها.. نفخت بابيتي أنفها بمنديل ومسحت عينيها:

ـ لا تقلقي.. لن أستسلم لليأس أو الاندفاع للانتحار..

ـ لم يكن الانتحار من أساليب آنا.. فقد كانت كثيرة الطمع،
لكنها كانت هوجاء في تصرفاتها لذا أماتها غباؤها.

جلست أورا ترقب بابيتي بقلق:

ـ لا تعلمين كم كانت امرأة غبية.. كانت تتذمر لأن كورد
رفض قضاء نصف حياته بمرافقتها إلى حياتها الاجتماعية التي ظنت
نها تستحقها.. كثيراً ما شكت وأنّت وبكت.. وفي اعتقادها أنها
ستطيع بذلك تحقيق ما تريد. لماذا قررت العودة إلى ديارك؟ ظننتك
اقية هنا أسبوعاً آخر؟

لم تقل بابيتي شيئاً، فأضافت أورا ساخطة:

ـ ليس ذلك عدلاً!

ـ ما الحياة بعادلة دوماً.. لا أستطيع البقاء.. إن عملي يعني لي
لكثير..

تذكرته عندما صحبها معه ليصلح السياج. كان بإمكانه إرسال
ي شخص آخر ليقوم نيابة عنه بالعمل. مع ذلك قام به مستمتعاً وفي
وقت لاحق جلس تحت الشجرة، لينظر إلى مملكته بحب واضح.
كان عليها في ذلك الوقت أن تقرر الرحيل فوراً.. ولكنها عوضاً عن
ذلك خطت إلى أرض محرمة، إلى قلبه..

قالت بصوت كسير: «لم أصب بضرر كبير.. لقد أمضيت
عطلة رائعة.. ويبقى أمامي أسبوع لأتذكر أو أنسى! وهذا ما يمهلني
الوقت لأجد من يعتني بصديقنا هذا».

لوّح براوني بذنبه وقفز واقفاً ينظر إليها.

ـ وهل قررت الاحتفاظ به؟

أمسكت بابيتي بقائمتيه الأماميتين تعيده إلى الأرض:

ـ أجل.. لم أدرك مدى حاجتي إلى كلب، حتى اختارني هو.

قالت أورا: «ليت الأمور سارت على ما يرام.. عرفت كورد
طوال حياتي.. صدقيني.. يصعب إيجاد رجل أفضل منه.. إنه
يستحق... آه! انسي الأمر!»

ستغادر العبّارة الفندق في الثالثة من بعد الظهر.. ولكن في

الساعة الثانية والربع جاء زوج أورا مقدّماً خدماته:

- لن يتمكن كورد من المجيء في الوقت المحدد. سأقلّك بنفسي إن كنت مستعدة.

- أنا مستعدة.

بدت رحلة العودة إلى الفندق أقصر بكثير من رحلة المجيء إلى المنزل.. استجابت بابيتي للحديث المرح الموجه إليها، وراقبت الأراضي الواسعة تمر بها وكأنها تبتسم لها، عشب، سياج، ومزروعات مزدهرة وجميلة.. إنها الحب الحقيقي الذي يستحوذ على قلب كورد.

ما إن أصبحت داخل حدود الفندق حتى استراحت.. لن يأتي.. إنه تصرف قاس ولكنه في الوقت نفسه تصرف لطيف.

قال زوج أورا عندما توقف في الفناء الخارجي المرصوف، بمرح:

- ها قد وصلنا. سأخرج لك الحقائب.. ما الذي يجري هناك؟

رأت فوضى واضحة من خلف أبواب الفندق. هناك رجل منبطح أرضاً، وحوله جماعة من الناس. ترجلت بابيتي من السيارة بسرعة وهرعت إلى الداخل حيث وجدت أن الرجل الراكع أمام الجسم المسجى خائف أكثر من المتحلقين حوله.

صاح مدير الفندق بانفعال وقلق:

- شكراً لله! أظنها نوبة قلبية، لقد تهاوى فجأة.

مدت بابيتي أصابعها تتفحص نبض الرجل، ثم ما لبثت أن بدأت بالضغط على قلبه.

سألت: «هل اتصلت بالشرطة؟»

هز المدير رأسه: «الهليوكوبتر في طريقها إلينا».

- جيد.. لا بد من وجود من يعطيه تنفساً اصطناعياً عبر الفم.

ركعت إحدى المضيفات متطوعة فقالت لها بابيتي: نفس واحد لكل خمس ضغطات..

ارتدت إلى المدير: «متى تصل الطائرة؟».

- بعد عشرين دقيقة.

- فتش عمن يقدم له تنفساً اصطناعياً وعمن يقوم بتدليك القلب أيضاً.

- بالتأكيد.

- وأبعد هؤلاء الناس.

بعد نصف ساعة فيما كانت على المرجة التي كانت مهبطاً للهليوكوبتر، أرجعت شعرها المبتل عرقاً عن وجهها بيد مرتجفة قليلاً.. شعرت بالراحة لأنها ستسلم المريض للطبيب المناوب في الطوافة.

قال المدير من ورائها:

- أحمد الله لأنك وصلت. لقد وقع فجأة، ولم أكن أعرف ما أفعل.

- ربما كان عليك أن تأخذ دروساً في الإسعاف الأولي. أليس لديكم ممرض أو ممرضة في هذا المكان؟

- بلى.. ولكن، أتصدقين، إنه يوم إجازتها.. ذهبت إلى البلدة هذا الصباح وهي بلا شك في الطريق إلينا الآن.

أشار إلى العبّارة العائدة إلى الخليج.

قالت بابيتي:

- لو كنت مكانك لأمّنت بديلاً عنها في أيام عطلتها.

هز رأسه بقلق.. ثم ابتسم:

- ها هو كورد.. رأيته قادماً منذ بعض الوقت، لكنه اختفى عندما حطت الطوافة.

وها هو.. غريب عن الجو الفخم بل يبدو في غير محله. ولكنه بدا رغم ثيابه المغبرة مسيطراً، جاذباً للعيون المعجبة المترقبة.

تفجر حبه في قلب بابيتي فقالت وهي غير قادرة على كبح الابتسام عن وجهها: مرحباً.

رد ابتسامتها، بعينين حذرتين: «تشعرين بالاكتفاء عندما تمارسين مهنتك».

لمس خدها، ثم التفت إلى المدير، وقال آمراً:

ـ حضّر الحمام للآنسة نيكولاس.. وفي تلك الأثناء بإمكانك إخباري بما حدث وكيف تنوي تجنب تكرار ما حدث.

احتجت بابيتي: «لكن.. العبارة».

ـ ستنتظر.

وانتظرت.. ربما كان يملكها أيضاً كالفندق!

بعد عشرين دقيقة سار معها على رصيف الميناء الصغير.. [illegible] يبدُ أن أحداً انزعج من التأخير غير المتوقع، لكن بابيتي انزعجت لهذا.

سألها: إن اتصلت بك فهل تقبلين الخروج معي؟

ـ من الأفضل ألا تتصل.. ألا توافقني الرأي؟

ـ بلى، واثق أنه تصرف غير عاقل. ولكن لو اتصلت..

ردت بسرعة: «لا...».

لو سمحت لهذا بالحدوث فلن تجني إلا الأسى والقنوط.

وهي اتخذت القرار الصائب.. وعليها الالتزام به.

لم يقل شيئاً. وصلا إلى العبارة بصمت.. مد رجل رأسه [illegible] غرفة القيادة، ونادى بحبور محيياً كورد.. انتقلت نظرته من كورد إلى بابيتي.

سأله كورد الذي رد على تحيته: «كيف حال ليزا؟»

ـ سليمة الجسم والعقل.. وأنت؟

ـ في أحسن حال.

قفز إلى المركب والحقيبة في يده، وأعطى تعليقاً لعامل جعله يحك.. ثم مد يده لبابيتي. فقالت معترضة: أستطيع الصعود.

لكنها أطاعت الأمر الصامت، وتركته يساعدها.. لحق بها أوني الذي أمال رأسه مراقباً.

قال كورد بهدوء: «اعتني بنفسك».

وخطا إلى البابسة ثم سار على الرصيف بدون أن يلقي نظرة إلى خلف.. كشرت بابيتي وجهها بألم، ثم دخلت من الباب إلى المقصورة الرئيسية، حيث جلست تنظر باتجاه الخليج.

* * *

٨ ـ خلقت لأجلي

كان الجو في المقصورة دافئاً ومرحاً. النسيم السريع يدفع اليخوت المتجولة هناك بسرعة ورشاقة بحيث بدت المياه وكأنها مليئة بالأشرعة.

مرت الجزر أمام عينيها، جميلة، تحيط بها الشطآن الرملية. كانت القوارب السياحية الصغيرة تشق طريقها بين اليخوت، وكانت سفينة شحن ضخمة، تمخر عباب البحر.

قال القبطان لبابيتي على الرصيف:

ـ إن انتظرتني دقيقة ساعدتك في حمل حقيبتك.. فالدرج شديد الانحدار.

هذا لطف منه. انتظرته بابيتي بأدب، عندما جاء أخيراً حمل حقيبتها ثم سألها:

ـ أكنت تقيمين مع كورد؟

ـ أجل.

ـ لديه منزل رائع. لن يكون المكان هو نفسه بدون أسرة بلاكيارد. كان جده اسكتلندياً عتيقاً.. يأكل أي شيء على الفطور.. كورد قاسي البنية مثله ولكنه لا يُظهر هذا كثيراً..

ـ لقد أمضيت عطلة ممتازة.

ابتسم مجدداً، ورافقها من مبنى الميناء إلى الرصيف

الخارجي:

ـ آه.. ها أنت..

وأشار إلى سيارة أجرة منتظرة:

ـ ظن كورد أنك قد تجدين صعوبة في الحصول على سيارة أجرة لذا طلبته بواسطة الراديو.

قطع شكر بابيتي له بالتحدث إلى السائق الذي نقده قطعة من النقود. قال: «هاك.. كل شيء على ما يرام.. أراك لاحقاً».

ـ شكراً لك ووداعاً.

ذكرت بابيتي للسائق عنوانها، ثم ركبت السيارة. ما إن وصلت السيارة إلى شارع فرعي غير بعيد عن المستشفى حتى شعرت بالراحة والتعب ممتزجين بالكآبة. بدا الجزء المخصص من المنزل قزماً بعد ترف ذلك المنزل وغرفه الواسعة. فتحت النوافذ لطرد الهواء الراكد.. المرجة بحاجة للتشذيب.. ولكن منظر الحديقة يسر النظر.

بعد طرقة خفيفة على الباب أطلت هيثر لايتنغ:

ـ ماذا حدث؟ من المفترض أن تغيبي أسبوعاً آخر؟ ألا تذكرين ما حصل المرة الماضية حين عدت باكراً؟ هل أنت على ما يرام؟

ابتسمت بابيتي، وقالت مبتسمة:

ـ لقد وقعت في الحب.. فهربت!

فغرت هيثر فاها.. توقف براوني عن الزمجرة، وتقدم.. مدت هيثر المذهولة يدها إليه ليتفحصها.. بعدما شمّها، جلس على قائمتيه الخلفيتين.

قالت هيثر: فلنشرب فنجان شاي بالنعناع.. تبدين مرهقة.. اجلبي هذا المخلص العجوز معك.

كان هيثر وزوجها معلمين، تعلم هي في مدرسة ابتدائية

محلية، ويدرس في مدرسة ثانوية في المدينة.. وكانا يدخران المال ليشتريا منزلاً، ويؤجلان إنجاب الأولاد إلى ما بعد الأمان المالي.. وجدت هيثر أن الكافايين في القهوة سم.. لذا كانت تقدم لزوجها وأصدقائها مختلف أنواع الشاي بالأعشاب.

قالت هيثر وهي تتقدم بابيتي إلى الباب المجاور.

ـ خرج جف للإبحار.. ربما رأيته وأنت في الطريق إلى هنا.

ـ هو وعشرة آلاف غيره.

ـ هذه تينا آخر فرد من أسرة لايتنغ!

كانت هرة سيامية بنية وعاجية اللون مستلقية على ظهر مقعد تحدق إليهم بعينين مجنونتين متقاطعتين.

ـ براوني.. لا!

تقدم براوني أمام نظرة المرأتين الخائفتين بوقار نحو المقعد.. وما إن أصبح على مسافة قصيرة حتى جلس ينظر إلى القطة السيامية.

تمتمت بابيتي:

ـ أعرف أن الكلاب تلاحق القطط.

ـ وأعرف أن القطط تهرب من الكلاب.. هاي.. انظري إلى هذا.. لا أصدق!

قفزت الهرة الصغيرة عن المقعد، وتقدمت بحماس إلى براوني.. أحنى الكلب المذهول جسده إلى مستواها، أما الهرة السيامية فراحت تفعل ما يمكن وصفه بالغزل..

بدأت هيثر تضحك:

ـ ما رأيك بهذه الوقاحة! لدينا حبيبان هنا.

فيما المرأتان وهما ترشفان الشاي بالنعناع، تراقبان الكلب والقطة، يسيران جنباً إلى جنب ليناما.. شرحت هيثر كيف اشترت القطة، ثم أخبرتها بابيتي كيف وجدت براوني، ثم ذكرت وصفاً

مختصراً للأسبوعين الماضيين.. وصف فسرته هيثر بشكل صحيح ودقيق.

ـ يا إلهي.. لقد أخذت لنفسك عائلة عظيمة. يعرف الجميع من هم عائلة بلاكيارد.. أذكر إعلانات افتتاح الفندق.. ألعاب نارية ضخمة.. ولكني لا أعرف شيئاً عن حبيبك أما عن زوجته فأعرف شيئاً.. أذكر الضجة التي أثارها موتها..

ـ إنه ليس حبيبي..

ـ ليس حبيبك؟

ـ لا!

ـ كما تشائين. إذن لا تذكري اسمه دائماً.. لأن صوتك يرق ويملأه الحنان عند ذكرك إياه. ما الخطب إذن بينكما؟

ـ أوه.. هيثر.. لا مستقبل لنا. إنه لا يقبل العيش في أي مكان آخر.. وأنا لي حياة خططت لها!

ارتفع حاجبا هيثر:

ـ وهل وصل الحد بكما إلى بحث المستقبل؟ أنتما نشيطان! لا يمكنك أن تحبي أحداً في أسبوعين قصيرين.

ـ أعرف.. هذا ما قلته لنفسي.. لكن، آه هيثر.. كان أمراً غير معقول. تبادلنا النظرات كما في الأفلام وقضي الأمر.

ـ هذا انجذاب.

ـ بل معرفة وإدراك.. ولكن الأمر بيننا مستحيل.. فلو تخليت عن مستقبلي العملي لجننت.

ـ أوه.. لا.. لا تستطيعين هذا، ليس بعد سنوات من العمل المرهق.. وماذا عنه؟ ألا يمكنه أن يبيع.. آه.. حسناً.. لا، لا أعتقد هذا. إنما ليس مضطراً للعيش على الجزيرة، فهو من مشاهير الأثرياء، ولديه مصالح في كل مكان.. ألا يمكنه شراء أرض واسعة

في ضواحي أوكلند، يشرف فيها على أمبراطوريته؟

قالت تهز رأسها: «إنه بحاجة إلى أمكنة فسيحة.. السكن هنا كوضع حاجز على بصر نسر.. لا أستطيع الطلب منه القيام بمثل هذه التضحية.. خاصة وأنا غير مستعدة لتضحية مماثلة».

- فهمت.

من الواضح أن هيثر لم تفهم.. لكنها أدركت أن بابيتي مرهقة كثيراً.

- في هذه الحالة، عليك نسيانه وإخراجه من قلبك.

- ما إن أرجع إلى عملي، حتى يهون كل شيء عليّ.

- طبعاً.. والآن احتسي فنجاناً آخر من الشاي.. وسأجعلك مسرورة لأنك اخترت الطب مهنة بدل التعليم.

أصغت بابيتي إلى قصص تلميذات هيثر البالغات من العمر ثماني سنوات.. ثم عاد جف إلى المنزل.. وقرروا جميعاً الخروج لتناول البيتزا للعشاء.. تمكنت بابيتي بمساعدة الزوجين من نسيان بؤسها مؤقتاً.

أغرقت نفسها ذلك الأسبوع بالعمل المنزلي إذ أعادت ترتيب غرفة نومها وانتزعت أوراق الجدران القديمة، وألصقت أوراقاً جديدة ثم طلت الأبواب والنوافذ، واشترت ستائر جديدة.

قالت هيثر بحماس:

- تعجبني.. أصبحت أنيقة. في لون هذا الغطاء شيء من لون شعرك.. اللون الأخضر فيه يتناقض مع الألوان السمراء الجميلة.. تبدين كحورية الغابات.

قال جف: «حورية؟ لقد حاولت إخفاء نفسها لئلا تظهر.. لا أستطيع رؤيتك إلا وأنت تتحركين.. مع ذلك فكل شيء مناسب.. الشيء الوحيد غير المناسب هو الكلب. لونه الأسود غير مناسب..

لماذا لا تستبدلينه بآخر أفتح لوناً؟»

نظرت إليه المرأتان برعب وقالت بابيتي بفرح:

- براوني؟ إنه بمثابة أخي.

قالت هيثر: وتينا هي بمثابة أخته الصغيرة.. ماذا ستتناولين للعشاء بابيتي؟

- العشاء؟

- العشاء.. تعرفين ما هو.. طعام، شيء تأكلينه.. فهذا ما يبقيك حيّة. لا أراك على معرفة بهذا في الوقت الحاضر. فلنخرج لنتناول طعاماً صينياً!

أذعنت بابيتي.. فهي تعلم أنها لن تجد الحل بتجويع نفسها. إن بعض النساء يفرغن البراد عندما يكن تعيسات ولكن البؤس يجعلها بائسة ترفض الطعام دائماً.

لا شك أنها ستتحسن حالما تعود إلى عملها.

وهذا ما كان.. كالعادة، وسعت عملها إلى أقصى حدود. سار كل شيء كما كان في السابق.. ولكنها كانت تذوي بسبب قلبها الكسير.

ظنت في البدء أن قوة الإرادة ستتغلب على ما تشعر به.. في الواقع، استطاعت منع إبحار مراكب الشفقة على الذات، بقوة إرادتها. ولكن البؤس الفارغ المضنك الذي ظلل أيامها، وأرق لياليها، لم يتلاشى من نفسها.. كانت تشعر أحياناً أنها قادرة على تذوق هذا البؤس. كلما وقعت عيناها على رجل فارع الطول أشقر الشعر وثب قلبها بين جنباتها وكاد يسبب لها الغثيان.. أحست بأن جزءاً منها انتزع عنها، وظلّ مكانه مكشوفاً دامياً.

عانت من كافة أنواع عذاب الحب، وما زاد الأمر سوءاً إدراكها بأن كورد يعاني مثلها..

لا بد من نهاية لكل هذا. . عندما رحل الصيف وحلّ الخريف بدأت ذكريات تلك الأسابيع ترتد إلى ما وراء وقائع الحياة اليومية. . إنما على هذا الألم أن يذهب. . لا يمكنه أن يستمر هكذا. إنه يتآكلها كالأسيد.

بعد ظهر يوم ما، دعت هيثر: «تعالي لتتذوق بعض العنب».

ـ أوه. . يبدو لذيذاً! من أين حصلت عليه؟

ـ خرج طفل اليوم من المستشفى، والداه اللذان يملكان كروم عنب أحضرا صندوقاً كبيراً، وهذه حصتي.

ـ سمعت جرس هاتفك يرن طويلاً بعد خروجك هذا الصباح.

ـ سيتصلون مرة أخرى.

تلك الليلة وجدت نفسها تنظر إلى الهاتف على أمل أن يرن، ولكن عندما لزم الصمت اقتنعت أن كورد هو من يحاول الاتصال بها. . وجدت نفسها تفتش عن رقمه في دليل الهاتف. وجدت اسمه. . ولكن، من الجنون والحماقة الاتصال.

قالت غاضبة وهي تنظر إلى براوني: لا.

عليها بعد اجتياز هذه المرحلة أن تثابر على القطيعة.

في اليوم التالي نظر إليها أحد الأطباء المقيمين وقال:

ـ لا أراك تغلبت على مرضك كلياً.

اعتادت على مثل هذه التعليقات:

ـ ربما عليّ أن أصف لنفسي ڤيتامين.

ضحك: «هذا أفضل. . لماذا لا تأتين غداً إلى الحفلة التي سنقيمها؟»

ـ كيم. . أنا. .

ـ تحتاجين إلى ما يبعد أفكارك عما يسبب لك هذه الدوائر السوداء حول عينيك. لقد رأيت المسؤولة تنظر إليك باستنكار.

المسؤولة امرأة لطيفة، ولكنها صارمة. . كانت بابيتي معجبة بها، وتخافها قليلاً.

ـ إذن عليّ أن أضع قناعاً واقياً.

ـ لإخفاء الدوائر؟ جربي ولكنني أظن أن عينيها ستخترقان قناعك بل عظامك.

ـ أنت على الأرجح محق.

ـ وماذا عن الحفلة. .

اتخذت بابيتي قراراً سريعاً:

ـ سأذهب إليها. . شكراً لك.

كانت عادة تستمتع بالحفلات فحفلات كيم دوماً خفيفة الوطأة، فيها تمد المائدة وتصدح الموسيقى، ويكثر الحديث المرح. . كانت زوجته تهتم بالموسيقى أما هو فيهتم بالطعام. . في أثناء العودة من الحفلة فكرت في أن الأمسية كانت رائعة وهي حفلة ستكرر حضورها. .

تلك الليلة نامت بلا حراك. وعندما استيقظت قالت لنفسها إنها على حق. . الأمر كله مسألة وقت. . ولقد بدأت مرحلة الشفاء.

ولكن، ما خيّب أملها بقاء الألم الذي ما فتىء يعتصر قلبها بشدة. ومع أنها عادت تقريباً إلى ما كانت عليه، إلا أن شعورها بالبؤس والوحدة لازماها دوماً. اضطرت للاعتراف كرهاً أن كورد ضرورة لها. . كانت في شوق دائم إليه وإلى صحبته وإلى الاكتفاء الكامل الذي تشعر به بوجوده. . وهناك كذلك البهجة الفكرية في حديثهما. . والدفء في ضحكاتهما. .

كانت تفكر فيه بلا انقطاع. . مع ذلك، عندما التقطت سماعة الهاتف لترد، لم تتعرف في البداية إلى صوته:

ـ بابيتي؟

ـ أجل.. من.. آه!
ـ أترغبين في تناول العشاء معي في وقت ما من الأسبوع القادم؟
شدت أصابعها على السماعة حتى ابيضّ لونها. يجب أن ترفض.. ولكن، هناك حدود لقوة الإرادة.
همست: «أجل».
لم تتغير لهجة صوته:
ـ أليك عمل ليلة الجمعة؟
ـ لا.
ـ عظيم.. أتفضلين طعاماً معيناً؟
ـ لا، لا بأس بأي طعام.
قالت في نفسها: «شرط أن أكون معك!»
ـ أراك في السابعة.. وداعاً.
وجدت وقتاً كبيراً لتؤنب نفسها على ضعفها ولكن قلبها لم يوافق على ما تفعله بنفسها من تأنيب. وكانت في الأيام التالية تتحرك مذهولة وسعيدة سعادة أضاءت وجهها.
يوم الجمعة، كانت عيناها تومضان وقد اضطرت لاستخدام كريم أساس أبيض لتخفف من تورد وجهها.. لم تزعج نفسها منذ عودتها بقص شعرها قصيراً كالعادة، وهو الآن أطول من أن تسرحه بطريقة أنيقة، فكان أن عقدته بطريقة تخالف طريقتها وثبتته بمشابك فضية ورثتها عن أمها.
وبما أن الليلة كانت أبرد من ليالي الجزيرة، ارتدت سترة مخملية قصيرة فوق فستان مخملي أيضاً. ولأن الأحذية المرتفعة تجعلها تبدو سخيفة، انتعلت حذاء متوسط الطول، جميل الطراز..
عندما رن جرس الباب هرعت إلى الباب تفتحه. لكنها وجدت هيثر بالباب..

قالت هيثر مبتسمة:
ـ تبدين جميلة فعلاً.. جئت لأرى إن كنت ترغبين في ترك براوني عندنا.
ـ لكنه لم يعد يعوي.
ـ قد يبدأ من جديد. إن تينا تحب أن يأتي إلى منزلنا. سأعد له جلد الخروف الخاص به. هل أفعل؟
ـ قد..
ـ لا تفعلي.. فشعر الكلاب الأسود لا يضفي الأناقة على زي سيدة محترمة.
تحركت عينا هيثر إلى مكان ما وراء بابيتي حيث الباب المفتوح، وسحبت نفساً عميقاً:
ـ يا إلهي!
وثب الترقب إلى قلب بابيتي التي ابتسمت لتخفي ارتباكها وهي تستدير.. هناك كان يقف.. بدا أضخم مما تذكره وأكثر جاذبية يرتدي ثياباً أنيقة تظهر رجولته وجاذبيته.
قال كورد وهو يساعد بابيتي على الصعود إلى المقعد الأمامي:
ـ جارة لطيفة.
ـ أنا محبوبة.
عندما استوى إلى مقعده، نظرت إليه، رامية الحذر عرض الحائط.. راح قلبها يشبع نهمه منه. لا، لن تكتفي من النظر إليه فقط.
دام طيشها إلى ما بعد احتسائهما المرطبات في المطعم الصغير الفاخر في شارع «بارنيل».. حيث الموائد مزدانة بالورود التي ترسل عطر بلاد فارس القديمة.. في ديكور المطعم ما ذكر بابيتي بغرناطة واسبانيا أيام العرب. وأحست بأنها تعود إلى العصور الوسطى،

رومانسية وتهور.

كانت بابيتي عادة تستمتع بتناول وجبة رائعة، ولكنها، الآن لا تهتم مهما كان نوع الطعام.

قال لها: «أراك نحيلة جداً».

ارتفعت كتفاها: «عدت إلى العمل.. وأنت أيضاً تبدو بحالة يرثى لها».

ابتسم بسخرية: «اشتقت إليك».

ـ عظيم.. مسرورة أنا لأنني لم أعانِ وحدي.

ـ لكنك عرفت أننا سنعاني قبل أن تتركيني.. أليس كذلك؟

هزت رأسها وهي تلوي شفتيها:

ـ ما كان علينا أن نكون أغبياء.

ـ جبانة.

ـ وماذا في هذا؟ أنا لا أريد أن أقع في حبك.

كانت الغرفة مضاءة بذكاء يضيف المزيد من الرومانسية على الجو.. وكانت المصابيح تدفىء شعر بابيتي الذي أصبح براقاً، وتزيد من حدة رجولة قسمات وجه كورد.. نظر إليها وعرفت كيف لرجل مثله أن يشعر وهو محرج.

قال بهدوء: «أمن الممكن أن تكوني قد وقعت في حبي بدون أن تدركي فأنا أشعر بأن عليّ أن أحصل عليك أو أجن».

ـ لا.. أنا متأكدة.

لم يرد ولكنها رأت في نظرته ما سارع لإخفائه فسألت بخبث:

ـ أكنت تأمل بهذا؟

قال وكأن الكلمات كانت مرة في فمه:

ـ كان ذلك سيسهل القرار كثيراً.

هزت رأسها: «كورد.. لن يكون هذا أساساً لزواج.. لأنني

لن أتخلى عن عملي».

لا شك أنه لاحظ تصميمها لأنه لم يقل شيئاً عن الموضوع.

كسرت الصمت المتوتر بسردها حادثة وقعت في المستشفى منذ بضعة أيام. أصغى إليها، وابتسم نتيجة الحادثة وما إن انتهت حتى قال بجفاء:

ـ أشعر بالغيرة لأن لا مكان لي في حياتك.. يا قلبي..

ثم عاد فغيّر دفة الحديث.

كان الصد مؤلماً وهادفاً، فلم تستطع النسيان، لكنها أجبرت نفسها على تجاوزه.. لقد حاولت جاهدة أن تنسى روعة رفقته. إن طريقته في التعامل مميزة. كل جملة يقولها الآن تزيد من تأثيره فيها وقد جعلها بذلك تفكر جيداً، بحثاً عن أسباب لكلامها.. ثم وجدت أنها تدافع عن وجهات نظرها بطريقة أعمق من طريقتها في الماضي. مع أن له وجهات نظر قوية في معظم المواضيع، فكان على استعداد للاستماع ومن ثم لتقديم جدال مضاد.. إنه مذهل ذكي. إنه حبيبها وهي مصابة بدوار في حضوره.

وفيما كانا يحتسيان القهوة رفعت بصرها إليه، فتطاير شرر الإحساس ببعضهما بعضاً كالصاعقة.

قال بصوت غريب أجش: «فلنذهب».

سألها في السيارة باقتضاب:

ـ أتريدين المضي في السهرة؟ أنذهب إلى ناد ليلي؟

جاء الرد بسرعة: «لا».

لم يتكلم أي منهما طوال طريق العودة.. سألته عندما أطفأ المحرك: «أتريد القهوة؟»

ابتسم: «ولِمَ لا؟»

أعدت القهوة، فاحتسياها وهما يتحدثان بهدوء وإن كانت

مشاعرهما غير خافية. أخذ كورد فنجانها الفارغ ووضعه قرب فنجانه، ثم وضع ذراعه حول كتفيها وشدها إليه.. لم يعانقها فوراً.. بل أخذ ينظر إليها فقط.. كانت أصابعه تمر على خطوط وجهها، فيما شوقه لها مسطور على قسمات وجهه.

عندما أحست أخيراً بأنها تكاد تصرخ شوقاً إليه، تنهد وقال:

ـ لا تفارقني هذه الابتسامة منذ تركتني.. ابتسامتك، وعيناك الخضراوان وسرعة بديهتك، وقلبك الكريم.. لقد خلفت الوحدة وراءك.

همست: «جلبتها معي».

أمسكت يده تلثم معصمه، الذي كان دافئاً قوياً.

ـ وهل جلبت الوحدة معك حقاً؟ ألا تملأ مهنتك الثمينة عليك حياتك كما كنت تعتقدين؟

همست: «أحبك».

ابتسم ابتسامة عدم تصديق ثم لثم عينيها من خلف جفنيها المغمضين فارتعش ناظراها طرباً، وكأنه أطفأ النار الخضراء فيهما..

فتحت عينيها بسرعة.. في تلك اللحظة كرهته لأنه يسيطر على نفسه.. وأصبح من المهم لها أن تعرضه لما تتعرض إليه.. هكذا استدعت كل غرائزها البدائية المستترة وابتسمت ابتسامة الحوريات الساحرة..

تمتم شيئاً.. لربما كانت شتيمة. ثم حملها بين ذراعيه ووقف:

ـ أحب أن أحملك.

سحبت نفساً عميقاً:

ـ ألأن هذا يجعلك تشعر بأنك كبير وقوي؟

رد على سخريتها بابتسامة قاسية:

ـ أنا كبير وقوي.. ولست مضطراً إلى إثبات ذلك. أنت رائعة بين ذراعي.. ناعمة، صغيرة، رشيقة، وكأنك خُلقت من أجلي، من أجلي وحدي.

أنزلها ببطء متعمد إلى الأرض. شهقت، وشبكت أصابعها في شعره الشاحب.. لكن رقة غريبة جعلتها تبقى جامدة.

ـ أحبك..

انسلت منها الكلمة مجدداً عن غير وعي، وحاولت إخفاءها في شعره..

ـ وأنا كذلك.. كثيراً.. كثيراً يا قلبي.

ردت ببساطة: «أنت وسيم».

ـ وأنت المرأة التي خلقت من أجلي.. بحق الله كيف استطعت البقاء طاهرة حتى الآن؟ ألم يستطع خطيبك أن يصل إليك؟

ـ لا.. لم يستطع. وأظن أن هذا سبب اندفاعه للزواج بي.. كان معتاداً على الصيد السهل، لذا أعتقد أن غروره تلقى صدمة حين رفضت مطارحته الغرام قبل الزواج.. هكذا خطبني.

ـ ليرضي غروره.. إنه لشديد الغباء.

ضحكت وأسندت رأسها إلى صدره.

ـ هذا ما أظنه.. بعد ذلك ندمت على قبولي بتلك الخطوبة. كان يريد حفل زفاف كبيراً، وأخذ يلمح إلى وجوب أن أتخلى عن الطب.. وكنت أجد الحفلات التي يذهب إليها جافة مملة، ملؤها الزيف والتملق وما هو إلا وقت قصير حتى أدركت أنه أناني عنيد حين يصل الأمر إلى مرحلة الانطلاق.. وأنا لا أشك في أنه قد يتبوأ مركز الرئاسة في المؤسسة التي يعمل فيها.

ـ هذا غير محتمل.. فمن يخدم نفسه فقط لا يبلغ القمة.. إنهم لا يرون ما وراء مصلحتهم الأنانية.. وأشعر بالأسف على الرجل.

ـ لماذا؟

ـ لأنه أول من اصطدم بعنادك. . أظن أن سبب رفضك الزواج هو السبب ذاته الذي يجعلك ترفضين إقامة علاقة مع أحد، فأنت تستخدمين عملك عذراً لتجنب علاقة حميمة.

كانت الفكرة مضحكة ولكنها كانت مرهقة ونعسى فلم تستطع الرد.

كان عليها أن تقول له إنه مخطىء. . ولكن، عندما كادت تهمّ بإيجاد رد غفت.

* * *

٩ ـ مؤامرة على القدر

أيقظتها أشعة الشمس ورنين الهاتف المستمر. حملت السماعة وقالت: «آلو»

ـ أنا حر حتى الثانية والنصف بعد الظهر. . وماذا عنك؟

ـ وأنا كذلك.

ـ ماذا تحبين أن نفعل؟

قالت حالمة: «لا يهمني ما دمت معك».

ـ أترغبين في زيارة أركادي وڤالوري؟ منزلهما غير بعيد عن المدينة.

ردّت بفتور: «نعم إن أردت».

ـ أشعر بأنك غير راغبة.

ـ أحبهما كثيراً لكن. .

ـ ولكنك تفضلين البقاء معي؟

ضحك ضحكة عميقة ثم أضاف: «حسناً سأصحبك إلى «واتياكير» كوني جاهزة بعد نصف ساعة».

ما إن أقفلت السماعة حتى هرعت إلى الحمام لتغتسل ولترتدي ثيابها. بعد نصف ساعة كانت جاهزة وكان كورد بالباب.

قادا السيارة إلى تلال «وايتاكير» السلسلة الجبلية التي تشكل سوراً يحمي أفق أوكلند الغربي.

هناك قطعا بضعة أميال على طرقات غابة رائعة، أعجبا بأشجار «كاوري» الفخمة، وحاولا تصور الجلال الذي كان موجوداً قبل قطع أكثر الأشجار.

إن كل لحظة معه رائعة ومع ذلك كانت متوترة، تتساءل عما يريده منها بالضبط.. أيريد علاقة عابرة معها؟ ليلة أمس قال إنه أحبها ولكنه لم يكرر قوله هذا.

وماذا قصد بالملاحظة الأخيرة الساخرة التي قالها قبل أن تغفو؟ لقد عادت الكلمات إليها الآن، وأرادت أن تقول له إنه مخطىء.. وإنها لا تتخذ عملها عذراً لئلا تستسلم أو تقبل بالزواج..

بذلت جهدها للاستمتاع بمسيرتهما وضحكا لمحاولات براوني الذي أراد جرهما في كل ممر جانبي بحثاً عن كل غريب أو رائحة مثيرة.. أحست بالراحة حين قال أخيراً إن عليهما العودة.

كان يدرك جيداً مشاعرها تجاهه لذا شعرت بصدمة صغيرة عندما سمعته يقول:

ـ ما بالك.. يا حبيبة قلبي؟

نظرت إلى خارج النافذة إلى جوانب الطريق المحاطة بالشجيرات الشائكة المزهرة.

ـ لا أعرف ما تنوي أن تفعله!

لم يتظاهر بأنه لم يفهمها:

ـ عندما تركت الجزيرة، عزمت النية على عدم ملاقاتك مجدداً وقد أقنعني المنطق بأنها أسلم طريقة.. ولكن ويا لسوء الحظ! كان القرار أسهل من التنفيذ.. فماذا تريدين أن تفعلي أنتِ؟

لم تكن قد قضمت أظافرها منذ سنين طويلة، ولكنها الآن راحت تقضمها عن غير وعي. سحبت يديها مذعورة ووضعتهما في حضنها ثم قالت وهي تتمنى لو يتخذ هو القرار:

ـ لا أدري.. أتريد علاقة؟

ابتسم ساخراً: «إننا على الطريق إلى علاقة.. أتريدين أن تكوني عشيقتي بابيني وأن تستقبليني كلما جئت إلى أوكلند شرط ألا تتعارض رحلاتي مع ساعات عملك؟»

عضت على شفتها، ولكنها قالت بحذر:

ـ كنت مخطئاً ليلة أمس عندما قلت إنني أتخذ من عملي عذراً، وإنني أخاف الزواج.

ـ لم أقل هذا بالضبط بل قلت إنك تخافين من إقامة أية علاقة حميمة.

لم يبدُ أنه متأثر بالكرب الذي تحس به.. اشتدت عضلة فكه من التوتر، وأنهى كلامه:

ـ أنا لا ألومك لأن الفكرة ترعب أي شخص كان.. لقد قررت حينما تطلق والداك ألا تعرضي نفسك لمثل ذلك الألم، ثم جاءت تصرفات أمك الطائشة فأكدت قناعتك.. فكان أن غرقت في عملك لأنه الوحيد الباقي لك ولأنه الوحيد الذي لن يخذلك أبداً.

ـ لو كان هذا صحيحاً، لما تركتك تحتل قلبي.

ـ ظننت أنك آمنة معي، كما ظننت أنا نفسي أنني آمن معك. وعندما اكتشفنا أن القدر مزح معنا مزحة عملاقة كان الأوان قد فات. لم يفكر أي منا بجلاء ليقوم بما هو صواب.. ثم كانت تلك الليلة، وكدنا ننجرف.. فأدركنا فجأة مدى الخطر.. عندئذ هرعت إلى أوكلند.. ولكنني لم أستطع إبعادك عن الجزيرة.

قالت بحزن: «لم ننجح حتى في الفراق».

ـ لا بل نحن ملتزمان.. إنما لماذا نتوقع أن نحصل على كل شيء؟ لقد سبق أن حصلت على حصتي من مباهج الحياة أما أنت فلديك الجمال والعقل والشخصية. لماذا نتوقع تطبيق كل القصة

الخرافية . . الزواج والأولاد، والسعادة؟ في هذه الأيام لا يموت من يحبهم الله صغاراً، فأنتم الأطباء تعتنون بهم . . ولكنهم يكتشفون أنهم كلما حصلوا على المزيد كلما حرّم عليهم المزيد . . قانون النسبية هزمنا جميعاً . . بطريقة أو أخرى .

كان هذا تصريحاً ملؤه المرارة ولكن لم يكن فيه رنة غضب بل تساهل وسخرية، مد يده يمسك يديها :

ـ هل نجرب إذن ونرى كيف تسير الأمور؟

ـ وهل سبق أن فعلت ذلك؟

حينما رمقها بنظرة جانبية حادة، أضافت :

ـ أعني إقامة علاقة طويلة الأمد؟

كانت سخريته في الرد لاذعة وجارحة :

ـ آسف . . لا أستطيع أن أضمن لك شيئاً .

تألمت وكان يقصد أن يكون كلامه مؤلماً . ثم ترقرقت الدموع حارة في عينيها، فطأطأت رأسها تنظر إلى حضنها .

قالت بصوت لا يكاد يكون مسموعاً :

ـ آسفة . . لا أستطيع أن أكون المرأة التي تريدها .

تمتم شتيمة موجزة قاسية ثم قال :

ـ أيتها الحبيبة الصغيرة الصابرة . . ما كان عليَّ أن أضجرك بتذمراتي . . لقد اقتنعت منذ سنوات خلت أن العالم لا يدور فقط من أجل مصالحي، وكان يجب أن أكون جريئاً فلا أتكل على القدر .

أوقف السيارة في موقف لمركز تسوّق تجاري .

ـ فلنشترِ شيئاً للغداء .

اشتريا «الباتيه» والخبز الفرنسي، ومختارات من الجبن، وبعض الزيتون، وقالب حلوى بالفاكهة . .

قال : هيا بنا لنأكل، فالتوست لا يشبع رجل مثلي أكثر من

ساعة .

تناولا الغداء على طريقة المتنزهين . ومر الوقت بسرعة كبيرة، كانت الدقائق تنسلّ دقيقة تلو الدقيقة وكأنها لآلىء عقد .

قال كورد بعد انتهائها من احتساء كوب المرطبات :

ـ تعالي إلى هنا .

فتقدمت إليه، معزولة عن الدنيا في ضباب سعادة ذهبية، وقالت بحبور وهي تضع ظهرها في حضنه :

ـ أظنني سأنام .

ـ ويم تشعرين؟

ـ بشيء من الغرابة ولكن يعجبني هذا . حذار فأنا محصنة جيداً أمام أية محاولات تقدم قد ترغب القيام بها .

ارتفع صدره بضحكة خفيفة : «فهمت قصدك» .

همست : «أحبك . . » .

جلسا هكذا تحت أشعة الشمس، المشاعر المشتعلة بينهما انتظمت في تواصل مبهج لا كلام له . .

ربما هذا هو الحب . . مجرد مزحة عملاقة اخترعها ذلك العقل البشري الذي يعمل خارج إطار المنطق والعقل .

لا . . الحب هو نوع من النشوة والفرح العميق المتراكم . فكرت : إن لم أره مرة أخرى فإن هذه اللحظات تستحق التحمل لأنني تعلمت ما هو الحب . . فشعورها نحوه يسمو فوق أوصاف الحب والرغبة . . وهي تحتاج لكلمات جديدة ولتعابير أخرى صافية كحبها .

أدركت أنها حتى في هذه اللحظات تستخدم خدعتها القديمة في إبعاد نفسها عن العاطفة ببنائها «متاريس» من الكلمات، بين العاطفة وبينها، وعرفت لماذا . . السبب أنها خائفة إن قبلت العاطفة أن

تكشف نفسها أمام الألم..

همست وهي تمسك يده لتضعها على خدها: «أحبك».

اشتدت أصابعه، ثم استرخت. وأخذت تلاحق خط حاجبيها المقوسين، فأهدابها الرقيقة فصدغيها الناعمين ولم تنسَ المرور بتجاويف خدها، وبأنفها المستقيم الصغير.

فتحت عينيها فرأت ضيق عينيه المفعمتين بالشوق..

همس: «بابيتي.. تعرفين ما تستطيعين أن تفعلي بي؟ ويعجبك هذا، أيتها القطة الصغيرة، الدافئة الحساسة الجشعة. أريدك، وأريد أن أحتفظ بك..»

أسند جبهته إلى جبهتها، ممسكاً بيديها.. وتنهدت وهي تصغي إلى كلماته، ويداها تسجلان ضربات قلبه المتسارعة..

أكمل معترفاً: «لم أعرف أن بإمكاني أن أكون غيوراً مشاكساً متملكاً هكذا.. أتوق إليك طوال النهار، وفي الليل أستلقي في الفراش وأتصورك معي، صغيرة، رقيقة، ذهبية، فيجفوني النوم ولا أستطيع الراحة...»

همست تقاطعه: «يكاد يحين وقت رحيلك».

ضحك بقسوة: «إلى الجحيم بوقت رحيلي! لقد قررت العودة في عبّارة بعد الظهر لأثبت أنني قادر على تركك متى شئت ولأثبت عدم حاجتي إليك.. ولكن لم يعد الأمر مهماً.. أضيفي هذا النصر إلى انتصاراتك الأخرى عليّ».

بعد رحيله، تذكرت تلك الملاحظة المريرة الأخيرة. فهو مثلها، كان قانعاً بحياته قبل أن تقتحمها.. كانا آمنين.. محصنين ضد العواطف والألم.. وها قد أصبحا الآن بلا حماية.. فمع الفرح الجذل، وخيوط الحب الذهبية هناك خوف وندم ومرارة ردتها إلى القدر.

قالت وهي تكلم الكلب الشاخص إليها باهتمام:

ـ لقد عرف شعراء من العصور الوسطى أموراً كثيرة. ماذا قال فيتز جيرالد؟

«آه حبيبتي!

أيمكن أن نتآمر أنا وأنت على القدر؟

أيمكن أن نتمسك بهذا الوهم الكبير؟

أيمكن أن نفككه قطعاً متناهية في الصغر؟

ثم نعيد تشكيله كما يرغب قلبانا.

دون أن تتدخل يد القدر؟»

وقف براوني ليتجاوزها إلى مكانه المفضل على جلد الغنم الذي أصبح مركز قوته وملجأه. ما إن وصل حتى دار مرتين ثم قعد.

أضافت: «ألا يعجبك هذا الشعر؟ لا تقل لي إنك كلب عصري وإنني متمسكة بالعهد القديم».

ساعدها هذا الهراء على التخفيف من وطأة توترها فأضافت تذكر قصيدة لويكنز هذه المرة:

«أنا امرأة وحيدة بائسة...»

لكن صوتها اختنق مع الكلمة الأخيرة فسارعت إلى الحمام تغسل وجهها.

في اليوم التالي، قال لها زميلها الطبيب كيم:

ـ تبدين أفضل حالاً.. هل عاد إليك حبيب القلب؟

ـ أيها المتعصب! أيجب أن يكون السبب رجلاً؟

ـ أجل.. أو امرأة.

ما تعرفه عنه أن زواجه سعيد. زوجته أكبر منه بقليل، أنيقة جداً، وذكية، وهي محامية.

أنت تتخيلين ما لا معنى له.. وبخت بابيتي نفسها وهي تجلس

لتنهي كومة أوراق من الأعمال المكتبية المتراكمة على مكتبها. . كان الوقت متأخراً أكثر من المعتاد عندما عادت إلى المنزل، وكانت الغيوم قد ظللت هذا اليوم، ولكن الجو ما يزال دافئاً في مثل هذا الوقت من السنة. .

قابلتها هيثر عند الباب الخلفي تمد لها يدها بسلة مليئة بالثياب المطوية.

ـ حبيبتي. . لقد أدخلتها إلي!

ـ قد تمطر. . آه انظري. . أليسا رائعين؟

كان الكلب براوني والقطة تينا يشتركان في لعبة مجنونة من المطاردة عبر المطبخ. . دخلت بابيتي بحذر تدعو هيثر إلى الدخول:

ـ أدخلي لارتشاف كوب من العصير فيما أمتع نفسي بشيء من القهوة.

ـ هل أمضيت نهاية أسبوع ممتعة؟

ابتسمت بابيتي:

ـ نعم. شكراً للسؤال.

ـ أهذا هو ردك؟ يا له من مخلوق رائع! حينما ابتسم لي أحسست بأصابع قدمي تتخدر.

ضحكت بابيتي ولكنها أحست بأن هناك ما هو ناقص. . وظهر ما ينقص بسرعة حين سألت هيثر بلطف:

ـ هل أتدخل فيما لا يعنيني؟

ـ لا. . لا بالتأكيد. . لكن. . أوه. . هيثر المسألة مشوشة جداً! أشتاق إليه كثيراً. . وأتساءل لماذا أنا غبية إلى هذا الحد! يقول كورد إن من الجشع طلب كل شيء. . وأظنه على حق إنما ليس من الإنصاف أن يحرمني عملي من الرجل الذي أريد.

قالت هيثر: «ليس عملك هو الذي يحرمك، فالبقاء في العمل هو قرارك الذي لم يجبرك عملك على اتخاذه، أنت لا تريدين أن تتخلي عنه».

ـ هذا غير إنصاف أيضاً. .

ـ أن تكوني أنت من تضحين؟ أوافقك الرأي. . من الحسن التذرع بالقول إنه لا يستطيع العيش في أوكلند. . لكن مثل هذا التعلق بالأرض يبدو فارغاً. . أعتقد أنه مجرد حيلة يستخدمها حين ترغب السيدة في الزواج.

نظرت إليها بابيتي:

ـ ليس كورد من هؤلاء. . لقد رأيته في أرضه بأم عيني.

ـ أخبريني بما رأيت.

قالت مفكرة: «إنها كالحياة التي كانت في ضاحية ريفية منذ خمسين عاماً. إنهم يعيشون مرحهم الخاص. . هم مجتمع خاص صغير. . مترابط. . و. . و. .»

ـ ضيق؟

ـ لا. . ! حسناً ربما قليلاً. . مع أن لديهم فندقاً وعبارة تزورهم يومياً، ولديهم هاتف، وتلفزيون. .

توقفت فجأة لأنها تدرك الأفكار التي كانت تعبّر عنها ولم تكن تعي من قبل وجودها. . ثم أضافت ببطء:

ـ المكان معزول إنما ذلك جزء من سحره. . وهو موطن كورد.

ـ وكورد، رغم روعته، هو الرجل المسيطر. . الرجل الذي يتوقع من زوجته التخلي عن كل شيء واللحاق به.

تنهدت بابيتي: «إنه الملك. . يحترمه الجميع وهو بحاجة إلى زوجة مستعدة لتحب أرضه كما يحبها».

- هل طلب منك الزواج؟

- أجل.. لكن هذا مستحيل.

ردت هيثر متعمدة: «حسناً.. لن أقول إنك اتخذت القرار الصائب. لقد عملت جاهدة، لذا لن تتخلي عن عملك بسبب أي رجل، مهما كان مثيراً وساحراً».

أطرقت بابيتي رأسها تسمح لخصلة من خصلاتها بإخفاء وجهها.. صبت عصير البرتقال فوق الثلج، وأضافت بعض الحامض ثم قدمت الكوب إلى هيثر، وقالت بخفة:

- ما دامت المعاناة حتمية فعلي أن أتعلم الاستمتاع بها. ربما تصقل شخصيتي وتقويها.

نظرت إليها هيثر عابسة:

- أشك في هذا.. أتعلمين؟ أنا أؤمن بإخلاص بأن كل الكلام عن رفيق الروح، وعن الرجل الملائم لكل امرأة هو مبالغة زائدة عن اللزوم.. أنا أحب جف كثيراً ولكنني أعرف أن في الكون عدداً كبيراً من الرجال الذين قد أجد معهم السعادة بطريقة مختلفة. أما الجاذبية فغير محصورة بشخص واحد.. يا إلهي.. لقد التقيت رجالاً أعجبت بهم بجنون! لكن الاحترام، والإعجاب، والعاطفة المتبادلة أمور في غاية الحيوية.. وهناك زيجات كثيرة ممتازة ترتكز أساساً على واحد أو أكثر من هذه المميزات لا على الرغبة.

كان طعم القهوة مراً في فم بابيتي وهي تسأل:

- أنت غير رومانسية إذن؟

- بل أنا رومانسية عملية. أؤمن بالشغف والرغبة والحب من النظرة الأولى، ولكنني لا أؤمن أنها أساس متين للزواج. الزواج بالنسبة لي هو التزام.. شخصان يتفقان على هدف مشترك، وهذا يعني الأولاد.. ولأنني معلمة أؤمن أن الأولاد يستحقون منا أفضل

ما نستطيع تقديمه.. وهذا لا يشمل أباً أجبر أمهم على ترك عمل تحبه وتحتاجه، وتبرع فيه.. لا تسأليني كيف يمكن التوفيق بين العمل والعائلة.. لأنني لا أعرف.

سخرت منها بابيتي بلطف: «أحب الإصغاء إلى كلامك.. فأنت صادقة كل الصدق! لكنك تظلمين كورد، لأنه لم يحاول إجباري على أي شيء».

ردت باقتناع كبير: «إن كان يريدك بقوة حاول المستحيل.. إنها غريزة في كل رجل.. مع أنهم يحاولون جاهدين الظهور بمظهر متمدن. إلا أنهم في أعماقهم يتوقون إلى رجال الكهوف. المرأة بالنسبة لهم بطيئة الفهم ضعيفة.. تحتاج إلى الحماية من الدببة والنمور المفترسة».

ضحكت بابيتي: «كيف عرفت هذا كله في هذه المدة القصيرة! هل أنت قارئة أفكار ربما؟»

- آه! أنا ذكية.. الواقع أن هذا أمر لذيذ.. فهم سراً يحبون المرأة لأنها تحمل جيلهم القادم.

- أهذا رأيك؟ لكن كورد ليس لطيفاً.. إنه خطير.

- أصدقك.. أراهن على أن لديك تلك النزعة.. والآن، سآخذ قطتي وأعود، فإن تأخرت في تحضير العشاء ضربني سيدي ومولاي.

ردت ساخرة: «هذا أكثر من محتمل.. ماذا ستأكلان؟»

- ومن أين لي أن أعرف.. إنه هو من يحضر الطعام.

تركت هيثر فراغاً خلفها.. حاولت بابيتي ملأه بتحضير العشاء.. تناولت عشاءها ببطء وبعد ذلك قرأت صحيفة، ثم جلست لتقرأ كتاباً طبياً كبيراً.

بعد خمس ساعات دخلت إلى الفراش.. كان عقلها مرهقاً

فغلبها النعاس وحين استيقظت صباحاً ظلت مستلقية تفكر في ما قالته هيثر.

أكانت على حق؟ وهل ما تشعر به هو الكيمياء القديمة قدم الزمن بين المرأة والرجل التي لا أساس لها غير الجاذبية؟

كانت كل ذرة من قلبها تصرخ احتجاجاً. لكنها تجاهلت الجانب العاطفي من طبيعتها، وأجبرت نفسها على تأمل الموقف بالعقل بعيداً عن العاطفة. آه! تلك الكيمياء موجودة.. ابتسمت ثم تمددت في الفراش كالقطة.. إنهما معجبان ببعضهما بعضاً، لديهما الإحساس بالمرح نفسه، ويمكنهما الحديث معاً.. تحترمه بسبب ذكائه وتحرره من التعصب الأعمى.. وهو يستمتع بسرعة بديهتها.

فيما كانت مستلقية هناك تتأمل الشمس وهي تشق طريقها إلى السماء.. اتخذت قراراً: لن تفكر في المستقبل أبداً بل ستعيش كل يوم بيوم ستبعد التفكير في الزواج عنها.

تطلق والداها لأن أمها لم تستطع التكيف مع الحياة الريفية الضيقة وهي تعرف جيداً تأثير زواج غير متلائم في المتشاركين وفي الأولاد. إنها قوية لذا ستنجو من الألم الذي قد يسببه ترك كورد إياها، وسيتلاشى الألم أخيراً، ويتركها حرة.

كان الوقت متأخراً ذلك اليوم عندما لاحظت كيم جالساً على مكتبه، ينظر إلى الأوراق بدون أن يحرك ساكناً. أدركت أنه جامد منذ دقيقتين وعلى وجهه تعابير الصدمة. وقفت وتوجهت إليه، فلمست كتفه ثم لفظت اسمه، فرفع رأسه ينظر إليها بعينين متعبتين..

سألته: «كيم.. ما الخطب؟»

هز رأسه وكأن صوتها أعاده من مكان مجهول.. ثم قال بصوت ميت:

ـ لا شيء.. لا أشعر بأنني على ما يرام.

قالت بلطف: «من الأفضل أن تذهب إلى المنزل».

ـ ليس فيه من أعود إليه، لقد تركتني دونيز.

ـ فهمت.. أنا آسفة.

تنهد ثم جذب نفسه من الإحباط الذي غرق فيه:

ـ وأنا كذلك.. لماذا لا نتناول العشاء معاً الليلة؟

لم تكن ترغب في هذا ولكن بؤس كيم الظاهر دفعها للقبول.

ـ أجل.. سأحب هذا.

تناولا العشاء ولكنهما تجنبا ذكر زوجته، ثم اقترح حضور فيلم يعرضه نادي الجامعة، وهو فيلم طالما أرادت بابيتي مشاهدته.

ـ أنا مضطرة إلى تبديل ثيابي المتسخة.

ـ سآتي لآخذك، لا داعي إلى استخدام سيارتينا.. أراك بعد عشر دقائق.

ـ عشر دقائق؟ أنا بحاجة إلى وقت أطول لأبدّل ثيابي.. احتسي القهوة فيما أنت منتظر.

سرعان ما وصل فأجلسته مع فنجان قهوة ريثما تبدل ملابسها في غرفتها.. بدا مسروراً بصحبتها، إذ ضحك عدة مرات خلال الفيلم.

في طريق العودة إلى البيت غرق في كآبته ولزم الصمت حتى وصلا إلى ما قبل نهاية شارعها.. سألها بلطف:

ـ هل أستطيع محادثتك بابيتي؟ قد تتمكنين من إعطائي وجهة نظر المرأة في الموضوع.

لم تجد دافعاً في قلبها للرفض.. وكانت تعرف ما هو قادم، سيروي لها قصته الدرامية، ويتوقع منها أن توافقه الرأي وإن لم تفعل رد بهجوم معاكس على كل أفكارها وتركها وفي رأيه أن جميع

النسوة متشابهات، غبيات، لا يستأهلن الثقة بهن.

ـ حسناً.. لكنني مضطرة إلى إخراجك بعد فترة قصيرة.. فأنا متعبة.

كان المطر قد بدأ ينهمر، وانخفضت حرارة الجو.. بدا الصيف بعيداً جداً وقد ضاع مع غيره من الفصول في حياتها.

قال كيم:

ـ ريح قارسة! أكره قيادة السيارة أثناء انهمار المطر ليلاً.

أخفت بابيتي ابتسامة خفيفة.. كان غارقاً في تعاسته بحيث بدا مستمتعاً بها.

بعدما دخلا إلى المنزل، أعدت له القهوة مجدداً ثم قدّمت له قرص أسبرين للصداع المفاجيء الذي شعر به.. وفيما كان محتضناً فنجان قهوته بين يديه أخبرها أن دونيز تركته لأنه لا يريد إنجاب الأولاد، ثم أضاف أنه يحب الأولاد، لكن التوقيت الآن غير مناسب. ولكن بدا لبابيتي أن السبب الحقيقي هو عدم رغبة كيم في التخلي عن حريته من أجل متطلبات الطفل الديكتاتورية.

ـ كم عمر دونيز؟

ـ تسعة وعشرون.. إنها تتقدم في العمر، لكن هناك آلاف النساء اللاتي لا ينجبن قبل الثلاثين.

ـ وحتام تريد منها أن تنتظر؟

لم يكن يعرف فتمتم «بضع سنوات» ثم أنهى فنجان قهوته الثاني وطلب أن يعرف لماذا أصبحت دونيز غير منطقية هكذا وهما قد سبق أن اتفقا على عدم الإنجاب.. غضبت بابيتي من تصرفه الأناني.. لم يبدُ أنه يدرك أن دونيز غير سعيدة لأنها تركته.

سألته: «ومتى يصبح الوقت ملائماً؟»

ـ حسناً.. أريد السفر إلى الخارج..

ـ كيم.. أعتقد أن أحداً لا يفعل هذا مع أولاد؟

ـ أتعتقدين أنني غير منطقي؟ حسناً.. ما رأيك بهذا..

ـ اسمع.. لا أريد سماع شيء.. ولكنني أعتقد أنك برفضك مناقشة الأمر معها، تركتها بلا خيار. أخبرني، هل تفضل أن تكون وحدك أم مع دونيز وطفل؟

سخر من كلامها، ولكنه اعترف:

ـ حسناً. تلقيت الرسالة.. مع أنني لا أفهم لماذا تريد إفساد اتفاق كامل من أجل الإنجاب.

ـ الواضح أن الاتفاق غير كامل بالنسبة لها.

ضحك ووقف: كان عليّ ألا أختارك للمحادثة.. فأنت منطقية.. شكراً لاستماعك لي.. وأنا آسف على إضجاري إياك.

ارتدّ أمام الباب وسارع يعانقها عناقاً سريعاً فذهلت.

ـ أنت فتاة لطيفة مع أنني أحس أنك تثيرين في نفسي عاطفة الأخوة.. تصبحين على خير.

الجميع على ما يبدو يعاني.. مسكينة دونيز، ومسكين كيم..

على الجدار ملصق يعلن عن معرض للوحات. حولت العتمة الخضراء الرسم الذهبي إلى وهج براق، أصبح معهما وجه الأم والطفل مركز الضوء.

رن جرس الباب خلفها فارتعبت.

ـ يا إلهي.

يبدو أن كيم قد نسي شيئاً.

لكن الرجل كان كورد الذي ملأ المدخل بطوله الفارع. كان المطر يلمع على شعره الذي ازداد اسواداً بفعل البلل.. وكانت عيناه باردتين متباعدتين كشظايا الذهب والصوان.

***

١٠ ـ صيف القلب

لا بد أنها شهقت تؤكد اسمه. . في الواقع لم تكن تعرف ما قالت، ولكن التعبير على وجهه جعلها تتجمد برداً وخوفاً.

شهقت: «ما الذي حدث؟ كورد. . ما الخطب؟»

ـ لم أستمتع بالجلوس خارج شقتك ساعة رحت فيها أتساءل عما إذا كنت في الفراش مع ذلك الرجل أم لا. . لم أستمتع البتة بهذا.

رفعت ذقنها، وقالت بحنق:

ـ ما كان عليك إلا قرع الباب ولو قرعته لأدخلتك. . ما كنت مضطراً إلى الجلوس على بابي متجسساً.

أمسك معصمها، وأخذ يشدها إلى غرفة النوم ثم قال:

ـ أفضل أن أكتشف هذه الأشياء بنفسي.

جعلها الغضب جريئة: «كيف؟ تتفحص الفراش؟»

ـ لا. . بل أتفحصك أنت.

ـ لا! أنا لا أريدك!

ـ أمر مؤسف. . لأنني أنا أريدك.

تبع ذلك عناق متوحش.

أخيراً قالت مستسلمة:

ـ لم أذهب إلى الفراش معه.

تأوه مشمئزاً من نفسه: «يا إلهي، أعرف هذا. . يا حبي! يا حبي. . ! ماذا فعلت؟».

ضمها بلطف، يتلمس شعرها بيد مرتجفة. فهمست:

ـ لا يهم. .

ـ بل يهم. . لا أستطيع القول إنني صدقت سوء ظني بك. لقد انتظرت عودتك ساعة ثم عدت معه، فجلست في الخارج وكأنني زوج مظلوم ثم استعرت في قلبي غيرة حمقاء وغضب حتى خرج. . بابيتي. . لم يسبق أن احتجت إلى أحد. ما كنت أريد رؤيتك قبل خمسة عشر يوماً، ولكنني لم أستطع الابتعاد طوال هذه المدة.

قالت حزينة: «لكنك مستاء مني».

ـ لا أريد أن أشعر بهذا. . أشعر وكأن الشخصية التي بنيتها بقسوة حولي تهجرني بسبب شوقي إليك. لم أؤذ امرأة قط. . انظري إلى صورتك. . آسف. . أحبك ومع ذلك أذيتك بعناقي، يجب ألا أكرر ذلك.

تسمرت وكأنها حيوان خائف يتمنى أن يتجنب الهجوم عليه:

ـ ماذا تعني؟

ـ ما دمت لا أستطيع الثقة بنفسي فعليّ ألا أراك مرة أخرى.

ـ لا يهم. .

ولكنه خرج حتى بدون أن يودعها.

انهمرت دموعها بعد خروجه، دموع أغرقت وسادتها وتركتها متورمة العينين متألمة من صداع شديد لم ينفع معه الدواء.

بعد ذلك باتت لا تتذكر الأيام والأسابيع بوضوح. تمكنت من العيش بتخليها عن المرأة التي أحبت كورد بلاكيارد. . في المستشفى كانت تعمل جاهدة، مقدمة ما في وسعها لعملها. . ولأن من الخطر ألا تأكل، كانت تأكل وتنام ثماني ساعات كل ليلة. . في

الواقع أدهشتها قدرتها على القيام بكل هذا.. توقعت أن تكون الساعات، وهي بعيدة عن العمل، طويلة صعبة.. ولكنها كانت تملأها بالدراسة، وتخرج للتنزه مسافات طويلة مع الكلب.. وتجبر نفسها على أن تكون اجتماعية لئلا تقضي أقل وقت مع بؤسها.

لم يدرك أحد أنها كانت تنزف حتى الموت في أعماقها. أما هيثر فربما بلى، إذ كانت تراقبها عن كثب بدون أن تعلق بقول وربما كان عند مسؤولة القسم، تلك المرأة الممتازة الخبيثة المخيفة بعض الشكوك إذ كانت تشعر بنظراتها المركزة ولكنها لم تقل شيئاً.

تمكنت بطريقة ما من إحكام إغلاق ذلك الجزء من نفسها الذي يسبب لها الألم وقد نجحت في معظم الأوقات. تعلمت كيف تتحمل الأوقات التي لا تنجح فيها، الأوقات التي يغمرها فيها الشوق إليه، وإلى رؤيته وإلى الإحساس بالسعادة التي تبعثها في نفسها صحبته وإلى التواصل الذي كان أكثر من روحي أو جسدي.

ثم تجد نفسها فجأة غارقة بدموعها وفي أثناء بؤسها كان يواسيها براوني بأنينه المتعاطف.

بدأت تدرك أنها لن تشعر أبداً بما تشعر به لكورد تجاه أي رجل.. إنه حبها الأول، بل ربما حبها الحقيقي الوحيد. إن تزوجت فقد تجد السعادة، إنما ذلك لن يكون ما وعدها به.. كان الخريف قد ولّى منذ زمن. قال لها كيم بطريقة عرضية:

ـ على فكرة.. دونيز حامل.

ـ حقاً؟ وكيف تشعر حيال الأمر؟

لقد أخبرها بعفوية منذ شهر أنهما عادا إلى بعضهما بعضاً.. وبدا لها الآن راضياً.

ـ على ما يرام.. ذهبنا إلى مركز مستشارة زواج.. كان الأمر

مربكاً، فقد جعلت المستشارة من الواضح أنها لن تكون حكماً.. لذا بعد بضع بدايات سيئة، جلسنا بالفعل معاً وتناقشنا.

ـ لم يكن الأمر سهلاً؟

ـ لا.. يظن المرء أنه يعرف كل شيء عن الحبيب، ثم يفاجئك بشخصية غريبة لم يرها سابقاً.

تذكرت آخر كلمات كورد لها، ولكنها أخفت مشاعرها بابتسامة، ورد عليها كيم بابتسامة خجولة، ثم أردف:

ـ هذا ما بدا لي! فقد كانت تقرأ مقالات سخيفة في مجلة غبية، فشعرت بالخوف من ألا تحمل بعد الثلاثين. وما كان عليها إلا أن تسألني.. فأنا طبيب!

ـ ربما شعرت أنك ستنحاز إلى مصلحتك.

اعترف على مضض: «ولربما كانت على حق في هذا.. على أي حال لم أعرف أنها قلقة من الأمر إلى هذه الدرجة».

ـ وهل أنت سعيد لحملها؟

بدا قلقاً: «في الواقع لا أحس بالإثارة، ولكنني أحب الأولاد.. إن الأنانية وحدها هي التي دفعتني إلى العناد.. وما إن أدركت هذا حتى عرفت أنه تصرف حقير.. على الجميع أن يتنازل أحياناً.. أليس كذلك؟»

التصقت كلماته في تفكير بابيتي.. وأخذت حقيقتها الواضحة تدور في رأسها بإزعاج، فتساءلت عما إذا كانت ستقوم بأية تنازلات في علاقتها مع كورد.. إنها مستعدة إنما ماذا عن كورد؟

لم تكن بابيتي تذهب إلى قلب مدينة أوكلند، خاصة أيام المطر.. ولكن، في صباح سبت ممطر استقامت وهي تحس بانقباض غريب جعلها ترتب سيارتها وتتجه إلى العاصمة. هي بحاجة إلى عدة أشياء. هناك قصت شعرها الذي أعادته إلى تسريحته

القديمة، ثم ذهبت إلى المكتبة المفضلة لديها لتشتري نسخة من قصة كانت تعد نفسها بقراءتها قبل أن تعرج على قسم الكتب الخيالية.

ـ طقس كهذا يتطلب بلا شك ما هو كبير ليستطيع فيه المرء الفرار إلى الخيال.. أليس كذلك؟

كان الصوت عميقاً وكانت نبرته الهامسة تدفئ برودته.

ارتدت بابيتي بسرعة لتتلاقى عيناها مع عينين بلون اللازورد الأزرق.. ڤالوري بلاكيارد!

قالت مرتبكة:

ـ مرحباً.. أجل هذا صحيح. فكرت في كتاب تاريخي.

ـ عن القراصنة؟

ـ ربما.

تبادلتا الابتسامات إنما في هذه المرة بلا ارتباك.

أشارت ڤالوري إلى كتاب سميك، على غلافه صورة امرأة حمراء الشعر، تحمل سيفاً كبيراً أمام قرصان قسماته وسيمة بشكل لا يصدق.

ـ أنصحك بهذا.. إن غلافه البراق الممتع يعطي فكرة خاطئة عن مضمونه.. فهذه قصة رائعة الكتابة لا يمكنك أن تملي منها أبداً.. كما أن للأبطال أسباب وجيهة لتصرفاتهم.

ـ لقد شوقتني إليها.

حملتا مشترياتهما إلى الصندوق وراحت ڤالوري ترد على أسئلة بابيتي ولكنها لم تنس أن تذكر ابنها.

ـ لا أتذمر.. فآل بلاكبارد يحتكرون سوق التصميم.

فكرت بابيتي بحذر.. أوليسوا هكذا؟ أصدرت صوتاً ينمّ عن الموافقة، ثم مرت بالصندوق مبتسمة.. ولم تستطع انتظار لحظة

الوداع.

قبل افتراقهما قالت ڤالوري:

ـ لماذا لا نتناول الغداء معاً؟ سأتصل بأركادي.. إنه يعشق الجلوس مع الطفل ولن يمانع أبداً إن تأخرت قليلاً. هناك مطعم جيد في «هاي ستريت».

بدت متحمسة فلم تستطع بابيتي الرفض.. ثم، ماذا هناك في البيت لتسرع إليه؟ شقة فارغة إلا من براوني وهو سعيد في طابق هيثر باللعب مع تينا.

وافقت.. بعد خمس دقائق كانتا جالستين إلى مائدة حيث رحب بهما الساقي بابتسامة.. فسألتها بابيتي:

ـ يعرفونك هنا؟

ضحكت ڤالوري: «أجل.. ينجحون دائماً في دفعي للشعور بأنني محبوبة.. ربما لأنني عندما جئت إلى هنا للمرة الأولى، كنت حاملاً.. فأغمي عليّ، وهم الآن ينظرون إليّ برهبة، ولكن بعدما يطمئنون إلى أنني في حالة جيدة يسترخون».

أكلت بابيتي ويا للدهشة جيداً، وكانت مستمتعة بحديث صاحبتها حتى وصلت القهوة..

ابتسمت ڤالوري شاكرة الساقي، ثم مالت إلى الأمام قائلة:

ـ الآن.. هذا هو الجزء الأهم الذي نحضر أنفسنا له.. لماذا تدفعان أنت وكورد بعضكما بعضاً إلى القبر باكراً؟

تسمرت بابيتي.. فقد اجتمع كل بؤس الأشهر الماضية في حنجرتها فأطبقها، بحيث لم تستطع إلا أن تهز رأسها منجنبة النظرة المصوبة إليها من الجهة الأخرى من المائدة.

لكن ڤالوري التي جمعت شجاعتها لطرق الموضوع بدت قلقة:

ـ لقد جاء إلى منزلنا في الأسبوع المنصرم. جاء عن غير سابق

إنذار.. بدا.. حسناً.. مدمراً، بعدما أطعمناه انسحب وتركته مع ابن عمه.. فهو وأركادي على علاقة وطيدة، إنهما صديقان حميمان إضافة إلى قرابتهما.. لم يكن على عادته فقلق أركادي عليه، وقال إنه بدا غريباً، وإنه تعس بشكل كبير.. بابيتي.. وأنت كذلك.. تبدين كمن أطبقت السماء عليه.. أليس هناك من حل؟

ارتشفت بابيتي قهوتها، ثم ردت بصوت أجش:

ـ أتظنين أننا لم نحاول؟

ـ ما أظنه أنكما على قيد خطوة من الحل ولكنكما لا تستطيعان التفكير السوي.. ألا طريقة لتصلا إلى تنازل ما؟

هذه الكلمة اللعينة مجدداً! وسألت بابيتي:

ـ كيف؟

ـ لماذا لا تتحولين إلى الطب العام؟

ـ في «موتواروها»؟

ـ لا.. لن تستطيعي العيش هناك بالتأكيد.

فكرت بابيتي قليلاً:

ـ أجل.. أجل.. أستطيع هذا.. قد يكون هذا انحرافاً إنما.. هذا مستحيل! «موتواروها» هي حبه الأول والأخير!

قالت بهدوء وحكمة: «أظنه بدأ يكتشف أن هذا غير صحيح».

توقف الموضوع عند هذا الحد.. فافترقتا..

بعد بضعة أيام تمكنت بابيتي من دفع ذكرى ذلك اللقاء إلى زاوية النسيان.. لكن الأمل الذي أيقظته ڤالوري لم يكن قابلاً للاختفاء بسهولة. وعندما اشتدت حدة الشتاء، انتظرت حتى تلاشى كل أمل بالتدريج، وفاز «موتواروها».

أجبرت نفسها على متابعة الحياة الاجتماعية التي بدأتها، مسرورة لأنها ضمن الدوائر الطبية فقط..

بعد حفلة أقيمت في منزل كيم ودونيز، نامت بابيتي نوماً عميقاً حتى أيقظها جرس الباب الملح.. كانت منزعجة كثيراً ففتحت الباب بدون استخدام سلسلة الوقاية.

بدت أمام الرجل الواقف منتظراً تحت المطر مرهقة، وحول عينيها دوائر سوداء تكشف عن مدى معاناتها.

شهقت وفغرت فاها، فقال نافد الصبر:

ـ دعيني أدخل بابيتي.. الجو بارد جداً هنا.

اندفعت ذكرى المرة الأخيرة التي رأته فيها إلى عقلها بقوة فحاولت صفق الباب في وجهه الذي شعّ غضباً أمام حركتها فاندفع يدخل بالقوة، وصفق الباب وراءه. كانت ابتسامة قاسية على فمه وهو واقف بصمت يتحداها أن تعترض.

عرفت ماذا سيحدث وعرفت أنها لن تقاومه.. لن تقاومه أبداً مرة أخرى.. إنها عالقة في فخ قلبه وليس بيدها حيلة.

رفعت كتفيها ثم تجاوزته إلى غرفة الجلوس وهي تنظر إليها بقرف. كان واضحاً أن يدها لم تلمس فيها شيئاً منذ عدة أيام، فقد ارتفعت طبقة من الغبار فوق كل شيء.

ـ أتريد فنجان قهوة؟

هز رأسه: «تبدين كالميتة.. اذهبي واستحمي.. أو ارتدي ملابسك، المهم أن تقومي بما يغير حالك هذه».

أخفت خيبة أملها بكلمات باردة:

ـ ديكتاتوري!

هز كتفيه: أنا هكذا.. ولكنني أستطيع إجبارك على ما أريده.. لذا، اذهبي، يا قلبي.. قبل أن أحملك إلى الحمام بنفسي.

عضت بابيتي شفتها لكنها أطاعت.. ونفست عن غضبها من أوامره بأن أطالت مدة الحمام قدر المستطاع، ثم ارتدت سروالاً من

الجوخ وسترة قصيرة فوق كنزة من صوف الغنم. . جففت شعرها ثم تساءلت عن الأصوات التي تتناهى إليها من غرفة الجلوس.

ما إن فتحت باب غرفتها حتى دغدغت أنفها رائحة القهوة. كان قد أشعل ناراً في المدفأة فتطاول اللهيب الذي أدفأ الغرفة التي نفض غبارها، إنه قادر على مفاجأتها باستمرار، ففي كل مرة ترى وجهاً جديداً من شخصيته.

قال وهو يأمرها: «اجلسي إلى المائدة».

قدم لها بيضة مقلية وأصر عليها أن تأكل قطعة توست وأن تشرب القهوة التي شاركها في احتسائها. عندما لم يكن ينظر إليها، كانت تنظر إليه بعينين تواقتين.

لا يبدو فظاً كما كان في الزيارة السابقة، ولكن التوتر شدد قسمات وجهه.

- كان الأمر صعباً. . أليس كذلك؟

هزت رأسها إيجاباً، فابتسم ساخراً:

- قد وضعنا نفسينا في الجحيم. . هل أنت على استعداد للذهاب الآن؟

- الذهاب؟ إلى أين؟

- سترين. . فلنترك براوني عند جارتك. .

- كورد. كيف عرفت أنني لا أعمل اليوم؟

- بالطريقة التي عرفت فيها أن براوني عند الجيران. لقد اتصلت بجارتك، ودفعتها إلى القسم على كتم خبر قدومي ثم سألتها. . ستحتاجين إلى معطف ومظلة. . ألديك حذاء مطاطي؟ عظيم أجليه أيضاً لأنك ستحتاجينه. تأكدي من ارتداء ملابس سميكة تدفئك.

رفض الرد على أي سؤال، ولزم الصمت بشكل مثير للسخط فكادت تفقد صبرها وكادت ترفض الخروج معه. . فابتسم،

والتقطها عن الأرض وحملها إلى حيث سيارته وقد تجاهل احتجاجاتها الغاضبة. . جلست صامتة وهو يقود السيارة الكبيرة في شوارع هادئة حتى وصلا إلى الطريق الرئيسية، واتجه شمالاً.

قال لها:

- سلّيني يا قلبي.

لانت له وبدأت تصف مشاعر الوحدة والبؤس اللذين عانت منهما في الأشهر الماضية، تحدثا عن الجزيرة، عن الناس الذين عرفتهم بابيتي. . ثم عاد الصمت بعدما راحت السيارة تنهب المساحات بقوة. كانت بابيتي قانعة بقربها منه، تراقب المطر المتدفق على زجاج النوافذ، وهي آمنة في وجود الحبيب.

توقف المطر عندما كانت السيارة تتعدى الطريق الرئيسي إلى طريق ضيقة معبدة بالحصى يفضي إلى منبسطات «وايبو» وإلى تلال أقل منها ارتفاعاً. كان الريف هناك أخضر منعشاً، فيه سواقي صغيرة تتسابق فيما بينها. وتحيط بهذا كله أشجار منخفضة، وقصب، وسياجات متعبة. الواضح أن الأرض لا تلاقي العناية الموجودة في أراضي الجزيرة الواسعة.

أخيراً تسلقا تلة، فلما بلغا قمتها أشرفا على واد واسع. . كانت يدا كورد كفؤتين سريعتين وهما تعملان على تجاوز مستوعب حليب ضخم. كان ينعطف بسرعة لا تدعو إلى الراحة أبداً. أطلق شتيمة لكن السائقين كانا ماهرين فنجوا بدون كبير عناء.

بعد ذلك مباشرة دخلت السيارة إلى طريق ضيق وعر على جانب التل، ثم توقفت في آخر المطاف أمام منزل مهجور. . نظرت بابيتي إليه. كانت يداه مشدودتين على المقود ثم استرختا. .

قال بعد جهد: «حسناً. . فلنلق نظرة».

المكان مهجور. . مخزن الصوف كبير لكنه متداعٍ، والواضح

أنه غير مستخدم منذ سنوات. كانت مخازن الآلات غارقة بالعشب، والمنزل أشبه بمنزل للخفافيش.

قال رداً على السؤال الكامن في عينيها:

- كان يستخدم مكاناً للراحة. ولهذا تجدين البناء مهدماً، هذا المكان والأرض المحيطة به هي لصديق قديم عجوز مات مؤخراً، وأهله ملهوفون إلى البيع.

- لا يبدو أنه كان مهتماً به كثيراً.

- فقد اهتمامه به كما أعتقد.

رفس بقدمه قائمة سياج، سرعان ما انهارت ثم أردف:

- المكان مفيد في مضامير عدة.. ففيه مزيج من التراب الصالح للزرع.

هزت بابيتي رأسها مقتنعة أنه جاء بها إلى هنا من أجل تضحية ما، لذا هي خائفة أن تسأله عنها.. على بعد ميل من الوادي، مجموعة من البيوت التي تشير إلى وجود قرية. والتقط نظرها برج كنيسة، وملعب كرة قدم، وبناء لمدرسة حكومية.

- إن هذا هو الموقع المنطقي لمنزل سكني، ولكن يصعب تصليحه.. نظرت إليه عمتي المهيبة ذات النظرة الثاقبة، باستغراب ونصحت بهدمه.

لملمت بابيتي شجاعتها وقالت بحزم ثم تساءلت:

- لا يبدو أن إنقاذه ممكن.. هل اشتريته كورد؟

انتزع يدها من جيب سترتها، ودسها في ذراعه، واقتادها بخطوات واسعة نحو السيارة:

- كان لدي خيار بالنسبة له.. أما الآن فالقرار يعود إليك.

فتحت فمها لتتكلم ولكنها لم تستطع النطق بكلمة. وفي السيارة خلعت الحذاء المطاطي، ووضعته في الخلف.. ثم التفتت

إليه لتقول إن من المستحيل.. إنها لا يمكن أن...

قال بصوت لا ينمّ عن شيء أسكتها:

- هي بحاجة إلى طبيب هنا.. تجاوز الطبيب الحالي سن التقاعد ولأنه لا يرغب في التوقف نهائياً هو مستعد لأخذ مناوبة الليل، وعطلات الأسبوع. أقرب مستشفى إلى هذا المنزل تقع على بعد عشرين كيلو متراً من هنا وهي تعنى عموماً بحالات الولادة.. كان الوادي قابعاً في حلم منذ ثلاثين سنة، ولكنه على وشك أن يتحرك.. ثمة مزارعان أقاما وحدات زراعية مستقلة.. بعد خمس سنوات.. سيصبح الوادي بساتين عدة ولن يطول الوقت حتى يصبح هناك عمل لطبيبين.

لم تستطع الاستيعاب، فقالت معترضة:

- لكن.. «موتواروها».

تركزت عيناه عليها:

- لا أنكر أن الأمر سيكون صعباً، ولكن الرجل الذي يرتبط بمكان واحد يكون معتمداً على ذلك المكان. وأنا قادر على التكيف مثلك تماماً..

جلست محنية الرأس.. كان تحت الأشجار الميتة في البستان مجموعات من النرجس الأبيض.. وكانت قد اقتطفت حفنة منها ووضعتها في منديل ورقي.. عبقت رائحتها الرائعة في أرجاء السيارة، فأخذت تنظر بإعجاب إلى الكؤوس العاجية الصغيرة وإلى الأوراق البيضاء التي تشبه في شكلها النجوم وراءها.

رفعت رأسها، إنما ليس إليه، بل إلى الوادي أمامها. إن عاشت هنا فستبدأ في التساؤل كيف كان يمكن لحياة أخصائية في طب الأطفال أن تكون.. ولكنها لن تندم أبداً على التخلي عنها.

ارتد رأسها ببطء فتلاقت نظرتها بنظرته الممعنة. لقد جفَّ كل

الذهب من عينيه اللتين كانتا قاسيتين بنيتين لا دفء فيهما بحيث لم تتحمل نظرة كهذه..

قالت: «نعم».

لم يقل شيئاً برهة طويلة ثم قال بهدوء: «الحمد لله».

استرخت يداه الممسكتان بالمقود بشدة، وشدها إليه. همس، وخده بارد على خدها:

ـ أحبك.

تركت بابيتي النرجس من يديها.. وامتزج عطرهما بعطره المميز، فرفعت يدها إلى وجهه، تتلمس حدود وجنته المرتخية وتوقفت على عينيه المغمضتين.

همست مرتجفة: «كورد؟»

ـ أحبك كثيراً يا قلبي.. لقد كنت في الجحيم. ظننت أنني لن أراك مرة أخرى.. وأدركت أن ما أشعر به نحوك أكبر من أي شيء في الدنيا. كنت مستعداً للتخلي عن أي شيء من أجلك.. ولكنني لم أكن واثقاً بأنك تحبينني حباً يجعلك تتخلين عن أحلامك.

ـ كدت أقتنع بأن أحلامي لا تساوي شيئاً بدونك.

فجأة، انتقلت من البؤس إلى الفرح العامر، وأصبحت قادرة على الشعور بالفرق بين التعاسة والسعادة.

عانقها عناقاً ملؤه شوق الأيام العصيبة الماضية ومرارتها فاستجابت له بكل جوارحها وانتفى وجود ذاك البؤس الذي كان يغلّف علاقتهما حتى الآن.

قال على عجل:

ـ إن كان لديك وثيقة ولادة، قدّمنا حالاً الوثائق من أجل الحصول على ترخيص زواج بعد ثلاثة أيام.. أريد منك أن تكوني زوجتي.

ردت هامسة: «موافقة».

صمت.. ثم ضحك بصمت، واشتدت ذراعاه حولها.

ـ ألا يزعجك التفكير في مثل هذا الزواج السريع؟

ـ لا، هذا إن كنت لا تمانع في عروس تقصد عملها صباح ليلة الزفاف.

ـ سأكره هذا كثيراً.. لأنني لا أريدك خارج فراشي أسابيع.

ـ ماذا عن الثياب؟

ـ الثياب؟ أية ثياب؟

ـ ألا تريدين أن تشرقي في ثوب زفاف؟

ضحكت ثم ضمته تعانقه.

ـ لدي ثوب زفاف.. اشتريته في نوبة تعذيب للنفس منذ شهر.. قلت لنفسي إنني سأرتديه في الحفلات. عرفت أنه ثوب زفافي.. ومع ذلك لم أظن أنني سأرتديه.

رفع يده يتلمس الدموع على وجنتيها:

ـ يا أعز الناس، يا قلبي الغالي، لا تبكي.

جعلتها لمسته الحنونة ترتعش، لكنها أوقفت البكاء وتنهدت ثم وضعت رأسها على صدره.

ـ ماذا سيحدث «لموتواروها»؟ هل ستبيعها؟

ـ لا.. بل ستبقى على الدوام.. يجب أن أذهب إليها من وقت لآخر، كما أفعل مع سائر أعمالي الأخرى.. سنقضي فيها عطلاتنا، وربما رغب أحد أولادنا في العيش فيها. لدي مدير رائع قادر على إدارتها ومن حسن الحظ أن أورا ترغب في المجيء إلى هنا إذا أحببت أنت ذلك.. سنحتاج إلى مدبرة منزل وهي بحاجة إلى هذا المكان لأن ابنها على وشك إنهاء المرحلة المتوسطة. لا تريد أورا وزوجها أن يترك المنزل ليعيش بمفرده لذا سيكون هذا الترتيب مثالياً

لهما.

- ومثالياً لنا أيضاً

وضعت يدها على صدره فشعرت بخفقات قلبه فقالت:

- أحبك.

بدأ المطر بالانهمار مجدداً.. ولكن السيارة من الداخل امتلأت بالدفء والحب والفرح، وقررت بابيتي أن الصيف سيبقى دوماً لهما وأنها ستعيش على هذه الأرض التي أصبحت منذ الآن بيتهما.. إنها أرض القلب..

***

فراشة الصبح